المشروع الوطني للترجمة
القصة العالمية

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

مطاردةُ الشبح

تأليف: ألكساندر بونوماريوف
ترجمة: د. عبد الحميد ديوب

مطاردةُ الشبح

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

مطاردةُ الشبح

تأليف: ألكساندر بونوماريوف

ترجمة: د. عبد الحميد ديوب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

ОХОТА НА ПРИЗРАКА

الكاتب: Александр Пономарёв

الناشر : Altaspera,2015

المترجم : د. عبد الحميد ديوب

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورة**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

مطاردة الشبح / تأليف ألكساندر بونوماريوف؛ ترجمة عبد الحميد ديوب . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م. - ٢٤٠ص: ٢٠سم. (المشروع الوطني للترجمة. القصة العالمية).

١ - ٨٩١,٧٣ ب و ن م ٢ - العنوان ٣ - بونوماريوف
٤ - ديوب ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

مطاردةُ الشبح

(قصة)

غادرت القافلة مدينة مازدوك[1] صباحاً، منذ اللحظة التي لوَّن فيها الفجر السماء بصباغ قرمزي. وقد عُيّنَ قائد المفرزة مسؤولاً عن القافلة في الطريق. بعد أن خلَّفت القافلة وراءها آخر حاجز أوسيتي[2] ودخلت الأراضي الشيشانية، كانت طائرةٌ حوامة تحلق فوقها في السماء، تشق الغيوم، وتطير تارة إلى الأمام، وطوراً تبدو من الجنب، بوجودها كان الوضع مُطَمْئِنّاً أكثر. لكن، وعلى الرغم من التغطية الجوية فإن المقاتلين الجالسين في صناديق السيارات، وعلى عربات بي تي إر المدرعة، وجّهوا سبطانات بنادقهم إلى مختلف الاتجاهات.

كانت قطعان الأغنام ترعى في الأراضي غير المحروثة، أحياناً تسترق النظر بخمول إلى القافلة الممتدة على مسافة كيلومترات

---

(١) مازدوك - مدينة في مقاطعة أوسيتيا الشمالية التابعة للاتحاد الفيدرالي الروسي.

(٢) نسبة إلى مقاطعة أوسيتيا.

عدة وإلى سلاسل الجنازير المغبرة، على الرغم من أنه لا جدوى من ذلك.

قفزَ قائدُ الوحدةِ العقيد «ماكييف» - العملاق أشقر الشعر، قليل الكلام، من صندوق السيارة وراقب باهتمام الوسط المحيط. في الأمام يتربص وادٍ ضيق، إلى يمينه يتساقط شلال غير كبير، تغطي الرغوة قسماً من صفحة الماء. وهناك جبلان مكسوان بالطحالب رمادية اللون، يرتفعان على كلا الجانبين كعجوزين. أومأ ماكييف لقائد الفصيلة كارتاشوف:

- فاليرا[1]، حدد سبعة أشخاص في الدورية الراجلة، ودعهم يمشطوا تلك التلة وذلك الوادي. أشار ماكييف إلى المكان المقصود لكارتاشوف بإصبعه، ثم أضاف: في اللحظة التي تعبر فيها الفصيلة إلى الجهة الأخرى للوادي يجب أن يبلّغوا عبر الواسطة اللاسلكية أن الطريق آمن. ستعمد الحوامة إلى تغطيتهم من الجو، أما في حال عودتها فيجري الاتصال مع الطيارين باللاسلكي المحمول.

---

(١) فاليرا أو فاليري: - اسم علم مذكر، وهو الاسم الأول لقائد الفصيلة.

التصقت قرية «قره يورت» غير الكبيرة بالسلسلة الجبلية، عشراتٌ من البيوت، شارعان طويلان والبطيخ، هذه هي القرية بأكملها.

- صبّ الرائد قائد المفرزة، التي يجب أن يبدلها فريق العقيد «ماكييف»، الشاي الساخن المركَّز في أكوابٍ من الألومينيوم، وقال: يا «كونستنتين إيفانتش»[1] فعلياً لا يوجد شيء ذو خصوصية في هذا القطاع. أنا أفهم الموضوع كالتالي: توضع المفارز هنا فقط لتغطية الدرب الجبلي وتأمينه. عبر هذا الشريان يجري شحن السلاح والمخدرات والمال إلى القوقاز بالحاويات، وذلك لتنفيذ أعمال إرهابيةٍ. ستعيشون في الخيام، سنتركها لكم. عليكم تحضير الطعام بأنفسكم، يوجد أيضاً مطبخ ميداني متحرّك. تم تثبيت حواجز التفتيش في محيط القرية، وهناك حاجزان متنقلان، ستدفعون بالكمائن حسب الحاجة. لم يحدث في أثناء وجودنا أي انقطاع في التيار الكهربائي.

- وكيف وضع السكّان المحليين؟ عبَّ ماكييف رشفةً من الشاي المعطر مع قضمة من مكعب سكر.

---

(١) الاسم الأول واسم الأب للعقيد ماكييف.

- السكان المحليين؟ يمكن القول لا بأس، ابتسم الرائد بتفهم، ثم أضاف: يمكن تحمُّل العلاقات المتبادلة إلى حد كبير في حال لم يبدأ مقاتلوك بالاستفزاز. هنا لا يبيعون المشروبات الكحولية، وهذا أمر غير معتاد عندهم. ستتعرفون إلى رئيس البلدية بأنفسكم، إنه فارس غير سيئ. هناك امرأتان تحضّران الخبز، أمٌّ وابنتها، لا تهاودان في الأسعار. البنت رائعة الجمال، لكن لا أنصح بالتقرب منها، فهي عذراء وهّابية. هذا كل شيء كما أظن.

- إذاً، في هذه الحالة، أتمنى لك رحلة سعيدة أيها الرائد. شدّ ماكييف بقوة على يد زميله.

- آه، نعم، نسيت تماماً يا إيفانتش، أخفض الرائد صوته، وقال: قُتِلَ عندنا هنا مخرب منذ فترة قصيرة.

- بأي معنى؟

- هكذا، أحد ما أراد إلحاق الضرر بنا على نحوٍ سطحيّ وربما على نحو أعمق.

- من السكان المحليين؟

- نعم، أنا أعتقد ذلك. غيرهم لا أحد يعرف هذا المكان جيداً، لذا، إما أن تمدَّ الأسلاك الشائكة وإما أن تزرع الألغام أو أن تعيد تمركز قواتنا.

أُطلِقَت النار على أحد عناصر الحراسة الأسبوع الماضي، أصيب العنصر بجرح سطحي. أضف إلى ذلك، يُخَلّفُ الفاعل في كل مكان آثار ذئب، وأحياناً قطعةً من الصوف. أما في الشهر الماضي فقد فُجّرَتْ سيارة تابعة لمكتب القائد العام، وكانت النتيجة سقوط شهيد واحد، كذلك حينها عُلّقَ على غصنٍ نابُ ذئبٍ، بالطبع لم نلاحظ ذلك على الفور - كان معلقاً بخيطٍ أسود.

- القطة السوداء؟

- نعم، أنا أعتقد أنّ أحداً خارج هذا المكان سمع عن هذه القطة، حتى سمعاً. أما المنشور فقد رموه لنا بطريقة ما، خُذْ - انظر إليه.

فَرَدَ ماكييف الورقةَ المطوية التي ناوله إياها الرائد. على ورقة دفتر، بين الخطوط نُقِشَت الجملة التالية بلغةٍ روسية ضعيفة:

غادر يا روسي، وإلا ستتلقى انتقام قره بورز.

- يا للهول، وكيف يمكن فهمُ هذا؟ نظرَ ماكييف إلى الرائد من فوق إلى تحت.

- حسناً، يُدعى هذا المكان قره يورت، الذي يعني القطة السوداء.

- بهذا يمكن أن نتجادل: تُتَرْجَم كلمة يورت من اللغة التركية إما بمعنى مراعي وإما بمعنى مكان للمعيشة بل حتى بمعنى وطن.

- كما ترى، يا إيفانتش، حتى أنت شخصياً تستطيعُ إلقاء محاضرة لي عن هذا. أما قره بورز فهو الذئب الأسود، على نحوٍ عام، الذئب عندهم حيوان مقدس.

- واضح، مسّد ماكييف ذقنه شارداً.

- هذا يحدث أيها الرفيق العقيد. أما بما يخص هذا الذئب فكن أكثر حذراً، حافِظْ على الشبان. أعتقد إن خاطرتم وبحثتم لمدة أسبوع في الجبال فستجدون هذا البورز، إنه إلى درجة كبيرة، في الحقيقة مغفل، وضحك الرائد نفسه على نكتته.

أول جرس خطر قُرِعَ تماماً بعد أسبوع، انفجر لغمٌ مضادٌّ للأفراد بالرقيب المسؤول في الفصيلة العملياتية الأولى، صباحاً باكراً. تعرّض الشاب بشدة للشظايا وأرسلوه مباشرة إلى المستشفى العسكري «سيفرني» بالحوامة.

على نحو طارئ... جمع ماكييف الضباط في خيمة الأركان وبدأ الاجتماع:

- من وقف ليلاً على الحاجز الأول؟ حدج ماكييف بعناية قائدي كلتا الفصيلتين.

- الرقيب رازوف أيها الرفيق العقيد، أجاب قائد الفصيلة الأولى الملازم دروزدوف دون أن يرفع عينيه إلى القائد وكأنه كان هو المخطئ فيما حدث.

- أحضره إلى هنا يا دروزدوف!

بصمتٍ استدار الملازم وخرج من الخيمة مؤرجحاً معطفه المطري.

- أيُّ أفكار ستتشكل لدى الآخرين؟ أخرج القائد علبة التبغ من جيبه وأشعل سيجارة.

- ذَهَبَ الرقيب لإحضار الماء، تكلم النقيب ستاركوف رافعاً نظره إلى العقيد، تقع البئر على مسافة خمسين متراً من موقع المفرزة ...

- هذا معروف لدينا، قاطع العقيد ماكييف كلام النقيب، باختصار يا سكليفاسوفسكي[1]...

- سلك الدرب وحيداً، تابع ستاركوف الكلام دون تذمر. تقريباً، المسافة نحو ثلاثين متراً عن الحاجز، وعلى الدرب مباشرة زُرِعَ لغم مضاد للأفراد، من طراز «مون»، انفجر في أثناء الحركة. تجدر الإشارة إلى أنه زُرِعَ اليوم ليلاً، في هذا لا يوجد أدنى شك. توجد حوله آثار ذئبية كبيرة.

- ذئبية؟ تدخّل في الحديث طبيب المفرزة كورنييف، ولماذا تعتقد ذلك؟ يمكن أن تكون آثار كلب؟

- إنها ذئبية يا فلاديمير أندرييفيتش، تابع ستاركوف، ورفع نظره إلى الطبيب، أنا لا أخطئ في تمييزها عن الآثار الأخرى.

عَمِلَ رجلٌ معي في الحراج، في بعض الأحيان خُضْنا في الغابة معاً عشرات عدة من الكيلومترات، علاوة على ذلك، هكذا هم يطاردون الفريسة، ذئبية، هذا مؤكد.

---

(١) اسم الأب للنقيب.

انقطع الحديث عندما دخل الخيمة رقيب قوي أسود الشعر يئنُّ، يدفعه قائد الفصيلة من الخلف. نظر مدهوشاً إلى جميع الاتجاهات بعد دخوله، من النور إلى شبه الظلام، وبعد ذلك شاهدت عيناه القائد فوقف في حالة استعداد.

- رازوف، قَدِّمْ تقريرك، أيها الصديق اللطيف، كيف نفَّذتَ الخدمة ليلاً؟ تمعن العقيد ماكييف الرقيب باهتمام.

- كل شيء بدا كالعادة أيها الرفيق العقيد، شهق الرقيب.

- هيا، أنت لا تغمغم، رفع قائد الفصيلة الصوت من الخلف، وكان قد استنطق الرقيب في أثناء الطريق، قُصَّ عليهم ما قُلتَ لي.

- قبيل الصبح، زاغ بصري قليلاً، تابع رازوف غير واثق.

- زاغ بصرك؟ كيف يكون هذا؟ هل غفوت؟ نفض ماكييف رماد سيجارته.

- يمكن أن أكون قد غفوت أيها القائد، لكن فقط خُيِّلَ إليَّ أن على الدرب المؤدي إلى البئر، عليه نفسه، ظهر شبح.

- شبببببح؟ مطّها ستاركوف.

- شبح، بدت الثقة في صوت الرقيب، ثم نقل النظر إلى النقيب، ظهر خيالٌ أبيض مثل الشخص، كما يبدو شبح، وماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ وَمَضَ ثم اختفى. لَمَّا تجهزتُ لأخبر المناوب عن ذلك باللاسلكي، فكرت أنني ربما تخيلت. في هذه اللحظة، اختفى القمر، وأنا ظننت أنها أغصان من الشجرة الباسقة قد وقعت في الظل. والأهم، لا صوت، ولا حفيف أغصان، فقط ظلال من الشجرة الباسقة على المكان نفسه. أَنَّى لي أن أعرف أن هذا سيحدث.

- آه يا رازوف، رازوف، عَبَسَ ماكييف، لو أنك أبلغت حسب ما يتطلبه الأمر لما طار رفيق السلاح مصاباً إلى المستشفى العسكري.

- نعم، أنا نفسي أفهم ذلك أيها الرفيق العقيد، عبس رازوف ورمش بعينيه، فكر ثم ترنح، نعم أنا خَجِلٌ أن أعترف أني خِفتُ من سخرية الرفاق مني...

- وأي سخريةٍ هنا، هنا يتوجب البكاء. اذهب أيها الرقيب وتابع الخدمة. رمى ماكييف السيجارة على الأرض هارساً عقبها بكعب بوطه العسكري.

بعد أن خرج رازوف من الخيمة روى العقيد ماكييف للضباط بسرعة، وبالتفصيل، حكاية الذئب الأسود، التي قصها عليه قائد المفرزة السابق، حتى إنه عرض عليهم المنشور السابق. بعد ذلك، ساد الخيمة صمت ثقيل.

- أليس من المحتمل فعلياً أن الرقيب يتخيل الأمر؟ خرق الطبيب حالة الصمت.
- واللغم؟ رفع قائد الفصيلة الثانية كارتاشوف نظره إليه.
- من الممكن، مضى عليه أكثر من أسبوع هنا، وفقط اليوم تعثر الرقيب به.

صامتاً، رسم ستاركوف بغصن صغير على الأرض شكلاً توضيحياً ومن ثم رمى الغصن إلى خلف عبر كتفه اليسرى واستدار إلى الطبيب.

- غير وارد يا فلاديمير أندرييفيتش، نحن مع النقابين كل فترة نَسْبِرُ المنطقة حول المعسكر. اليوم ليلاً فقط وُضِعَ لغم نوع «مون».
- رازوف معذور أيها الطبيب، هذه أول مهمة له في القوقاز، قال ماكييف، وأيضاً نظر إلى الطبيب، لهذا كان يرتجف هنا،

أما بالنسبة إليك يا صائد العصافير، فمن المعيب الاقتناع بالأشباح. وإلا، غداً سنسمع أن أشباحاً بيضاً أشداء في أحذية رياضية يتقافزون في الجبال، وربما في الوديان! هذا يا فلاديمير أندرييفيتش هو الذئب الأسود نفسه الذي ينتقم منا.

- هذا بعيد المنال عنهم، ابتسم كارتاشوف وبصق غيظه تحت قدمه.

- هذا هو الوضع، طبعاً لم يكن هذا يلزم أحداً هنا يا فاليرا، أيلزمنا هذا؟ إنه قد بدأ للتو، لقد تذوق طعم الدم، تابع ماكييف، إذاً سنعمل كالتالي: قادة الفصائل سينشغلون بالخدمة، وأنت يا دكتور ستهتم بموضوعاتك، أما عنك يا ساشا[1]، وهنا نظر ماكييف ببساطة إلى ستاركوف وقال له: لك مني مهمة خاصة. عن هذا سنعرف نحن الخمسة فقط. أرجوكم رفاقي الضباط، لا أريد أن أسمع أيّ همسة عن هذا الموضوع، لأي كان، وإلا فالعملية كلها ستفقد جدواها. ماذا وكيف نحن معاً سَنُقَدّرْ، وسوف تُبلِغ عن النتائج لي شخصياً كل مساء. مفهوم؟

---

(١) ساشا أو سانيا تصغير للاسم الروسي ألكساندر وهو الاسم الأول للنقيب.

- حاضر، قال ستاركوف ببساطة.

- حسناً. لكل مؤخرة لعوب يوجد مقعد بمسمار. نحن سنقبض على قره بورز هذا.

نهارٌ كاملٌ وسانيا ستاركوف يتمشى كالضائع. همس محركاً شفتيه، لوح بيديه، رسم أشكالاً وإشارات بيديه في الهواء، وأحياناً أخرى استدار فجأة بسرعة ومضى في الاتجاه الآخر.

قبيل المساء، على نحو حازم، دخل خيمة القيادة وقال:

- هذا ما أعتقده يا إيفانتش، إذا كان الفاعل واحداً من السكان المحليين فعليّ عندها خداعهم، بحيث يعتقدون أنني «قوقازي مُضَلَّل». وربما من الممكن أن نجد بعض الشبان غير الراضين عن نظام الحياة اليومية؟ ممكن التحدث إليهم، كل على حِدَه، عن رغبتي في الهروب إلى الجبال والتحول إلى فارس مغوار حقيقي...

- لن تنجح، مرة أخرى تناول ماكييف علبة السجائر من جيبه ونقر عليها لإخراج سيجارة منها، وقال: لدينا القليل من الوقت. سكان الجبال حذرون جداً، لتنفيذ ذلك يلزمك أن تعيش هنا عامين على الأقل.

- وكيف تنظرون إلى تحويل سانيا إلى سكير مُدمن، تدخل كورنييف في الحديث.

حدق كل من ماكييف وستاركوف بعينين واسعتين مذهولتين إلى الدكتور إلى درجة أنهم لم يستوعبوا منذ البداية عما هو يتحدث. عاد القائد إلى صوابه أولاً كما هو مفترض.

- أنت شخصياً يا أندرييفتش[1] لاحظت أني لم أفهم عما تتحدث؟

- السكان المحليون لا يشربون، أقصد المشروبات الكحولية، أليس كذلك؟

- نعم إنه كذلك، لكن ماذا بعد؟

- وفي حال ظهر ضابطنا على نحو دائم ثملاً، في الشارع، في مقهى القرية، وفي كل مكان، فبالمختصر، سيتعامل السكان في البداية معه على نحو عدائي، لكن بعد فترة سيشيحون بوجوههم عنه ولاحقاً سيعدّونه شخصية مهزوزة لا ضير منها، ويفقدون حذرهم أمامه.

---

(١) اسم الأب للطبيب.

- ماذا يعني هذا، عليّ أن أشرب كل يوم فوق الحد؟ تدخل النقيب في الحديث، في هذه الحالة سأموت من إدمان الكحول قبل الأوان.

- ليس بالضرورة، استدار الدكتور باتجاهه وأضاف: ألا تستطيع أن تقلد حالة شخص مخمور؟ طبعاً لا ضرورة لأن تتشرّد في الشارع، إنما عليك أن تتصرف كشخص غير متزن وغير عاقل إلى حد كبير.

- هكذا إذاً، فهمت الآنْ وافترَّ ثغر ماكييف عن ابتسامة ثم أضاف: لكن أنا قلت سابقاً إن سكان الجبال شديدو الاهتمام وحذرون جداً، من المحتمل ألا يصدقوا...

- سيصدقون، ضرب كورنييف يديه على فخذيه، سأعطيك يا سانيا نوعاً من القطرات تجعل حدقتيك كحدقتي بومة وتحت الشفة السفلى ستضع قطنة مشبعة بالكحول وتالياً ستفوح منك رائحة الخمرة على مسافة ثلاثة كيلومترات. وعلى هذه الهيئة أنت ستجلس في مقهى الشاي وبيدك بطحة أو تضع قنينة في عُبّكَ، ويجب أن تعرف متى ستغبّ منها وكيف ستتوقف من وقت إلى آخر. أمام هذا المقهى يعبر كل

رجال القرية تقريباً، فمن الممكن أن تسمع شيئاً ما أو حتى أن تشاهد...

- ما زال هناك تساؤل آخر، تصنّع ستاركوف البسمة وقال: لا أجيد لغاتهم ...

- في هذه النقطة بالذات أنت غير محق، قاطع القائد كلام ستاركوف. في هذه المنطقة يعيش أناس من عشرات القوميات، لغاتهم الخاصة في بعض الأحيان غير متشابهة جذرياً، ولغة التواصل فيما بينهم هي الروسية، وهذا يناسبنا بالمطلق.

- حسناً، قالها ستاركوف ومد رجليه إلى الأمام بعد جلوسه بشكل غير مريح متشياً على نفسه من بداية الحديث إلى درجة أن الخدر سرى في أوصاله، وأردف: بما أن المجلس قرر ذلك فهذا يعني أني سأتحول إلى شخص عديم الأهمية، وتائه في المجتمع، لكن كيف العمل إذا أوقفني أحد عناصرنا ولم يسمح لي بالمرور؟

- لا تقلق بشأن ذلك. ستخرج في الليالي بقصد تنفيذ بحث وكمين في موقع متقدم. ستقدم تقريراً مفصلاً في نهاية كل خروج للاستطلاع يا ساشا. دقق على كل شيء، حتى أبسط

الأشياء التي تعتقد أنها سخيفة، عقل واحد جيد، أما عندما يعمل عقلان أو أكثر فلا مجال للمقارنة، ثم نظر بارتياح ورضا إلى كورنييف.

- هذا أفضل، ستأخذ معك فقط الأشياء الضرورية جداً: مصباحاً كهربائياً يدوياً، خريطة، جهاز اتصال لاسلكياً محمولاً، عُدَّتي ميدان كاملتين، لكن، ماذا أعلمك؟ فهذا ليس عامك الأول في الخدمة.

- فهمت أيها القائد، قالها ستاركوف وقد أزاح من نفسه الشك الذي أرقه طوال اليوم، وامتلأ بروح المغامرة تدريجياً مثل كلب قبل الصيد، واستطرد: سآخذ كل الأشياء الضرورية وسأفكر في الأمر جيداً، لكني أعتقد أن لا ضرورة لجهاز الاتصال اللاسلكي فقد يرن في اللحظة القاتلة. إذا سمعتم أصوات معركة هبوا على الفور لتغطيتي. هذا الذئب موجود دوماً بالقرب منا، وأنا سأهتم بأمره، وسأحاول أن أسبقه بخطوة دوماً أو أن أكون خلف ظهره. أعتقد أن عدة ميدان واحدة تكفيني، وسآخذ فقط بندقية عيار ٤٥ , ٥ مم، ورمانات دفاعية ومخزناً واحداً فيه طلقات خطاطة. بافتراض أن هذا

الوغد لا يعمل وحيداً، واستطاعوا أن يوقعوني في شرك ما، فسأرشدكم إلى مكاني بوساطة الطلقات الخطاطة التي ستدلكم على الاتجاه الذي ستسلكونه للاقتراب منا، ثم نظر ستاركوف نظرة استفهام إلى القائد ماكييف.

- شرد لثانية ثم قال: موافق، أتمنى لك التوفيق.

اختفت الشمس ببطء خلف الجبال التي اكتست قممها بقبعات من الثلج الأبيض الناصع، كرات من الثلج تتساقط إلى الأسفل ببطء، وتتحول في أثناء حركتها إلى ما يشبه غمامات خفيفة تتهادى على سفوح الجبال. من القرية تسربت رائحة روث محترق. عَبَرَ سانيا كالظل نقاط الحراسة الموزعة قطرياً في الموقع العسكري، متجنباً استخدام الطريق، ثم التفّ إلى الأراضي المكسوة بأشجار غير عالية.

- في البداية سأتجول في القرية لأرى بنفسي كل شخص هناك وأعرف أدق التفاصيل عنه حتى أحصي أنفاسه التي يتنفسها، ومن ثم سأدرس طبيعة الأرض القريبة للقرية، قالها سانيا في سره، وفي الحال تسلل الخوف إلى نفسه، ونظر حواليه ظاناً أنه تحدث بصوت عالٍ.

لكن، ساد الصمت المكان من حوله، وعندها ساد الرضا نفسه.

بدأ ليل جنوبي بارد يغطي التضاريس المحيطة، فقط من جهة القرية سُمِعَتْ أصوات، لكنها معهودة من الأماكن التي يعيش فيها الناس: خوار البقر، قرقرة الدجاج، بكاء طفل.

هَدّأَتْ هذه الأصوات من روع سانيا وجعلته في مزاج هادئ.

- تَحْسَبُ كأنه لا تدور في هذه الأرجاء أي حرب، فكَّر في نفسه للحظة، لكنه بسرعة تخلص من حالة الذهول هذه وهيأ نفسه للعمل.

تسلل عبر الأشجار الممتدة حتى طرف قرية «قره يورت» واختار لنفسه موقعاً مريحاً وملائماً للمراقبة. استلقى لمدة عشرين دقيقة يراقب، من ثم نهض وصعد الجبل بعض الشيء حتى وجد فسحة منبسطة على السفح. افترش على الأرض عازلاً عسكرياً، وأخرج منظار الرؤية الليلية ليباشر مراقبة القرية بعناية شديدة.

رسم المساعد كوليسنيتشينكو له مخططاً للقرية مسبقاً، وكان سيريوغا كوليسنيتشينكو صديقاً ورفيقاً لـ سانيا منذ مدة طويلة. وقعت على كاهل سيريوغا أعمال ضرورية وغير بسيطة في هذه

المهمة، كان مطلوباً منه تأمين الطعام لعناصر المفرزة، وتجدر الإشارة إلى أن هذا المساعد نفّذَ واجباته بحرفية عالية.

إلى أي مكان تُرسَلُ المفرزة، وفي أي وقت من أوقات السنة يَنسُجُ سيريوغا من اليوم الثاني العلاقات الضرورية مع المحيط، ويساعده في ذلك أنه، بطبيعته، شخص مرح، اجتماعي وسريع التأقلم.

بالاندفاع نفسه، هنا في قرية «قره يورت»، بعد أسبوع واحد استقبله جميع سكان القرية بالترحاب.

في الساعة الأولى لم يلحظ سانيا أي شيء مميز، بعد الساعة الثانية ليلاً عندما غفت القرية عن بكرة أبيها وبدأ القمر بالاختفاء خلف الغيوم الرمادية، لمح هيئة مقاتل، إما بعينه اليمنى وإما اليسرى، كما سمع ما يشبه إغلاق بوابة. خرج شخص من المنزل، نظر حواليه إلى مختلف الجهات ثم بدأ المشي واثقاً على الطريق باتجاه الغابة الخضراء.

بسرعة، لفّ سانيا العازل وحزمه حول خصره، وعلّق بندقيته إلى كتفه من حمالتها، وتبع المجهول بشكل مستور. حمل الشخص المجهول كيساً قماشياً في يديه، ومشى بثقة ويسر دون النظر إلى جانبي الطريق، ومن الواضح أنه عَرِفَ مسبقاً هدف خروجه.

تسلل سانيا من دون أي ضجة على جانب الطريق، تارة ينبطح على الطريق وطوراً يتحرك بوثبات قصيرة. تعرجت الطريق بين أيكات النبات ثم تسلقت الجبل. تطلب الأمر هنا تخفيف الحماس لأن من غير الممكن التنقل بسرعة على طريق كهذا يعجُّ بالحجارة التي داستها الأحذية العسكرية من زمن إلى آخر.

تابع الشخص مشيته بنشاط في طريقه، حتى الآن لم يصل إلى الفسحة الجبلية، حيث تحلَّق الرعاة حول موقد، وحضَّروا الشاي، وخزت مباشرة الرائحة القوية للشاي والدخان أنف سانيا. استلقى كلب من سلالة أفتشاركا قوقازية قرب الموقد، لكن في التو رفع رأسه مشمشماً، ثم وقف بخمول وتهادى باتجاه المُستَطلِع.

وقف سانيا على قدميه لاعناً حظه، وتراجع بسرعة، لكن لم يدخل في حساباته قط أن يتقابل وجهاً لوجه مع حارس قطيع الأغنام.

- إذاً، احكِ لنا أيها المقاتل ماذا رأيت أو سمعت ليلاً، قال ماكييف مسترخياً على أريكة مصنوعة من الخشب الأخضر لصناديق قذائف آر بي جي.
- لا شيء ذو أهمية يا إيفانتش، تمشى الراعي اليوم ليلاً بعض الشيء.

- أولم يلحظ هذا الراعي أي شيء غير طبيعي عندما تمشى؟

- رافقته حتى المرج، شاهدت حياة الرعاة البسطاء، من ثم في الحقيقة اضطررت إلى لعب لعبة الاختباء مع الكلب، حتى إني رميت التبغ على الدرب حتى فقد الكلب تركيزه عني. بعد ذلك راقبت لمدة ساعة ذلك البيت حتى بزغ الفجر.

- هكذا إذاً، اسمع ما سأقوله لك يا سانيا: بسرعة، فقط القطط تلدُ، تابع المراقبة. وفق ترتيبك يمكننا أن ننتظر ثلاثة أيام، يمكنك أن تذهب وترتاح.

خرج سانيا من خيمة القيادة، وتوجه مباشرة إلى صديقه سيريوغا كوليسنيتشينكو.

استمرت الحياة الاعتيادية في منطقة الانتشار المؤقتة، نفَّذت فصيلة كارتاشوف تدريباً على الفرضية التالية: إطلاق صفارة الإنذار، التحرك إلى المواقع المخصصة في حال تعرض منطقة المعسكر إلى هجوم أرضي أو تعرضها للقصف.

تصاعد الدخان من المطبخ الميداني المتحرك، وتحادث المقاتلون في أثناء طريقهم لإحضار الماء، وراقب الحراس المنطقة المحيطة،

وبالقرب من الخيم، بوقاحة، رعت بقرة قادمة من القرية، وأحياناً نظرت إلى المقاتلين في البزات العسكرية من طرف عينها بلا اكتراث.

- سلام سيريوغا، ألقى ستاركوف التحية وجلس بالقرب من المساعد.

- سلام، دمت بخير، وتابع تقشير البطاطا بلا انزعاج.

- ألا توجد أخبار في دارنا أو في الجوار؟

- حتى الآن، على ما يبدو، يشملنا الله برحمته، ثم أخفض كوليسنيتشينكو صوته وأضاف: بالنسبة إلى مهمتك يا سانيا لا يوجد مسلحون بشكل علني في القرية، جميعهم في الجبال، جاؤوا لقضاء الشتاء، وعندما ستدفئهم الشمس ثانية سيتوجهون إلى القتال. أتذكر البنت التي تخبز لنا، «مادينا»[1]، في الحقيقة هي فتاة وهابية لكنها تضعف أمام نظراتي، ولا تستطيع مقاومة بعض الأمور...

- هل تعتقد ذلك؟

---

(١) اسم علم مؤنث.

- أنت تعرف كم أنا التقيت بهن وكم شاهدتهن، أعتقد ليس فقط وحدها. صحيح أن لديهم رعاة وقطعاناً كثيرة، والناس في القرية، وفق معايير الجبال، ليسوا فقراء، لكن يحتاجون إلى العناية والاهتمام، هنا لا يعرفون الغنج والدلال. الأغنام هي المادة الإستراتيجية هنا إلى درجة يمكن القول إنها المادة الوحيدة الهامة في الحياة. الأرض الزراعية عديمة القيمة، وفي الحقول «كما شاهدت بنفسك» لا يوجد سوى السفرجل وطبعاً بعض البطيخ أحياناً. يتبقى رئيس الوحدة الإدارية، وهو منا، والمقهى وولد واحد، لكنه يبدو كئيباً بعض الشيء. في أثناء الحرب الأولى أُصيب برضّ قوي لذلك تراه كالمختل من فترة إلى أخرى.

- كيف هذا؟

- يقولون عنه: يمكن أن يهرب إلى الجبال - بعدها يبدأ البحث عنه، ولا وسيلة للإضاءة سوى المصباح الكهربائي اليدوي، أو أن يبدأ بالصراخ لأيام متتالية. صنع أقرباؤه له قفصاً خشبياً، أحياناً يضعونه فيه ويغلقونه بالمفتاح، أما هو فيصرخ كالضحية ويعضعض قضبان القفص.

- نعم، فهمت أيها المساعد، شكراً لك سأفكر في الأمر، ألم تنسَ أحداً؟

- من الممكن أن أكون قد نسيت يا سانيا، على كلٍ، عدد السكان المتبقين في القرية ليس بالكثير. سأتابع المراقبة، يأتي إليّ أناس إما بغرض استئجار بعض الأدوات وإما لمقايضة السكر بالحليب، سأحاول...

- وكيف ينظر الشعب إلينا، وهل هو معبأ باتجاه ما على نحو عام؟

- يختلفون في طريقة التعاطي: بشكل مكشوف لا أحد يظهر الكره للسُلْطة، ويتصرفون بحذر إلى درجة أنهم يخافون الترحيب بنا علناً، ومع ذلك يتشابهون جميعاً في إظهار النظام والالتزام لنا عند وجودنا بينهم. أهل الجبال شعب يحب العدالة.

في اليوم الثاني، حطَّ سانيا ستاركوف رحاله في المقهى، وجلس على الحصيرة، ثم طلب شاياً. من وقت إلى آخر كان يخرج قنينة من عُبّه ويصب الشراب في قدح. كانت كمية الكحول فيها ليست كبيرة، والقسم الأكبر كان ماءً، لكن الرائحة فاحت لمسافة كيلومتر.

في البداية، أجفل فقط صاحب المقهى «فايت»[1]، لكن لم يدخل الناس المقهى في اليوم الأول نهائياً، نظروا بارتياب وعدم رضا إلى السكير الروسي، وتبادلوا بعض الجمل مع صاحب المقهى ثم خرجوا.

في اليوم الثاني، استنبط صاحب المقهى «فايت» حلاً وسطاً، فهو لا يريد أن يختلف مع الروس ولا سيّما أنهم ارتادوا المقهى على نحو متكرر واشتروا كميات كبيرة. لذلك، نقل «فايت» حصيرة سانيا إلى الزاوية الأبعد التي قدر عليها، ووضع حولها حاجزاً مناسباً وكان هذا كافياً حتى يعود الأهالي إلى المقهى. جلسوا يشربون الشاي، وتحادثوا فيما بينهم، وضحكوا، وبعدها حتى لم يعودوا يعيرون انتباهاً إلى سانيا، لولا إجفالهم من رائحة الخمرة.

لم يتدخل سانيا في أي حديث، بل حتى لم يشأ أي منهم أن يتحدث إليه. لم تكن هناك أي فوائد بعد من مكوثه في المقهى، فالأحاديث كانت عن الطقس والمطر، وعن الأبقار المريضة، وعن محصول السفرجل وهكذا، باختصار فراغ مطلق.

---

(١) اسم صاحب المقهى.

- سيد «فايت»، صبّ لي ثانية الشاي من فضلك - فتح سانيا بداية عينه اليمنى قليلاً ثم أتبعها بالعين اليسرى.

كان صاحب المقهى قد أحضر له إبريق شاي ممتلئاً، ومن ثم أزاح إبريق الشاي الفارغ ببراعة عن الطاولة ووضع أمامه الإبريق الجديد. انتهز «فايت» الفرصة وسأله:

- لماذا تشرب الكحول هكذا يا سانيا؟

- هكذا، هي الحياة هكذا يا سيد «فايت»، ولسنا نحن، وماذا يمكن أن نفعل هنا غير ذلك، ملل.

- هل أحضر لك بعضاً من الطعام: لحماً بالعجين أو لحماً مشوياً؟ إنك لا تأكل أبداً، فقط تشرب الفودكا. قالها «فايت» عابساً بعد أن سألت إحدى النساء: لماذا يشرب هذا الروسي الفودكا هنا؟ ماذا، ألا تُباع الفودكا عندهم في منطقتهم؟

- لقد أضحكتني... طبعاً تُباع. لا... لا أريد أن آكل نهائياً.

- أنت مقاتل جيد يا سانيا، فارس حقيقي. لكن، لماذا تشرب هكذا، لا أستطيع أن أفهم.

- أنا نفسي لا أعرف لماذا.

- توقف يا سانيا، تخلص من ذلك، يجب أن تعود إلى بلدك، إلى منزلك. أما إذا استمررت في الشرب فالجبال لا تحبّ هذا. ستبقى هنا، ستبقى إلى الأبد.

- من الممكن أنك على حق يا «فايت»، سأقلع عنه شيئاً فشيئاً.

- هذا رائع، ابتسم «فايت» برضا، وابتعد عنه ببطء.

نقر ستاركوف على العارضة الخشبية عندما وصل إلى عتبة خيمة القيادة.

- نعم، هذا أنت - ادخل يا سانيا، هل تريد شراباً لتصحصح؟

- في الأقل لا تهزأ بي أنت أيها القائد، قالها سانيا وهو يزيح الغطاء عن مدخل الخيمة. دلف إلى الداخل وجلس مقابل ماكييف.

كان القائد ينظر بتمعن إلى خريطة، أحياناً يضع عليها بعض التعليقات بقلم خشبي أحمر اللون.

- إذاً، أخبر ما وراءك. أزاح القائد الخريطة جانباً وبحذق ألقى القلم في كوب بلوري محجر.

- لا توجد أي نتائج من وجودي في المقهى حتى الآن، لقد كنت محقاً عندما قلت إن السكان المحليين حذرون ويقظون. حصلت على معلومات أكثر من كوليسنيتشينكو، على ما يبدو أنه يعرف كلمة سحرية. من الممكن أن يفتح الجبليون قلوبهم له.

- وماذا عن المراقبة الليلية، كيف كانت؟

- مشطتُ المنطقة المحيطة بالطول والعرض، حتى الآن لا توجد نتائج.

- نعم، هذا ما كان متوقعاً. هذا الذئب حذر، إنه بعد كل تسلل يجب أن يختفي ويتبخر. هذا ما قاله لي أيضاً القائد السابق، عدوّنا مخادع وحذر جداً. تابع البحث يا سانيا، لا تتوقف. أتعرف كيف يعمل القناص؟

- نعم أعرف أيها القائد، يترصد الهدف أياماً عدّة.

- نعم، إنه كذلك أيها النقيب، ويجب الأخذ في الحسبان في حالتنا، أن الهدف صعب، يجب أن تدور خلفه لأسابيع، وربما لأشهر. لكن، أنت أيضاً لست بالشخص البسيط، لست قليل الخبرة، لديّ معلومات كذلك عنك وعن خدمتك في طاجيكستان، لديك تجربتك، هيا تابع عملك يا سانيا.

ليلاً، هيأ سانيا لنفسه مكاناً للاستلقاء تحت شجرة بلوط ضخمة ووارفة. بعد ذلك، وقف على تلة وانكشفت له المناطق المحيطة بشكل جيد من ثلاثة اتجاهات، أما الجهة الرابعة فقد سترتها خميلة خضراء. حتى الآن لم تنم القرية، لذلك قرر ستاركوف أن يريح دماغه، أحياناً هذا مفيد جداً، وذاك معروف للجميع منذ القدم.

- حسناً، هكذا سندرس السكان: صاحب المقهى «فايت» شخصية معروفة في القرية، نهاراً هو دائماً منظور، شخص يحظى بالاحترام. يساعده في العمل في المقهى ولداه المراهقان وامرأة عجوز. منزله ليس سيئاً إلى حد ما، وليس ببعيد عن مكان عمله «المقهى».

يُحضِرُ الموادَ الغذائيةَ اللازمة للمقهى رجلٌ مسنٌ على متن دراجة نارية ذات عربة جانبية، ينقلها مرتين كل أسبوع. أما ليلاً، فماذا يفعل صاحب المقهى ليلاً؟ من جهة أخرى، إذا كان طيلة النهار يدور في المقهى كما السنجاب في الدولاب فأي مغامرات يمكن أن يؤديها ليلاً؟ من الضروري له أن ينام ليلاً.

كسر سانيا فرعاً من الغصن ووضعه جانباً على الأرض.

- رقم اثنان - المجنون «لوم - علي»[1]. أم أنه فقط يتظاهر بالجنون؟ ربما يقوم بعمله ثم يبدأ بالصراخ كالمذبوح؟ لكن بوضعه الراهن لا يبدو كذئب حقيقي... مع ذلك، أي كان الوضع فلن نخرجه من حساباتنا...

مرة أخرى كسر فرعاً من الغصن ووضعه إلى جانب الأول.

- رقم ثلاثة - مختار القرية. في الأرجح تميل كفته إلى الرفض أكثر منه إلى التصديق، هو في حالة سفر معظم الأوقات، ودوماً هو شخص منظور. لكن، هل يوجد أي شخص كان شاهد أو سمع أي شيء مما حدث. نعم، حتى المجموعة السابقة كانت تدور في حلقة مفرغة هنا بما يخص هذا الشبح، على الأقل لو أن شريكاً ما أو أحد الشركاء...

وضع الفرع الثالث من الغصن في مكانه على الأرض إلى جانب الفرعين السابقين، أما الغصن نفسه فقد طار بعيداً من فوق الكتف اليسرى.

---

(١) اسم الشاب المجنون.

تصاعد دخان من جهة القرية ، بدايةً، ارتفع إلى الأعلى ومن ثم تشتت بسبب هبوب ريح باردة، وتهادى على الأعشاب التي تغطي الأرض.

«يوقدون روث الحيوانات» - شمّ سانيا بأنفه.

ظهر القمر فوق الجبال، دائرياً أصفر اللون كالبرتقالة، كما يتم تخيله فقط في الطفولة.

ثبت النقيب سبطانة البندقية على حامل ليتسنى له الاستلقاء بشكل مريح، وفجأة أحس كيف سرت القشعريرة في جسمه. سيطرت حالة توتر على الجو، حتى الأصوات خفتت لوهلة. من تلك الجهة نفسها المحجوبة عن الرؤية، جهة الخميلة ثمة أمر ما قد حدث، لكن ما هو هذا الأمر حتى الآن، لم يفهم سانيا. لجزء من الثانية توترت أعصابه، وفي اللحظة نفسها صدمت أنفه رائحة واخزة غير محببة، آتية إما من صوف ملبد وإما من كلاب. رفع النقيب عينيه وانصعق، من الجهة اليسرى على مسافة ثلاثة أمتار في ضوء القمر وقف ذئبان، وقفا، وبكل هدوء حدقا إلى سانيا مواجهة. ظهرا من دون أي ضجيج، كأنهما خرجا من تحت الأرض. أحدهما ضخم بسحنة قائد، أسود اللون، والآخر أصغر حجماً عنيد، رمادي اللون مع بقع شقر.

برقت أعين الذئبين في الظلام كجمارٍ متوهجةٍ.

- كم مرة اقتفيت آثاركم، لكن أن أراكم هكذا فهذا يحدث للمرة الأولى، ومضت في رأسه فكرة: هذا هو الذئب الأسود. نعم، لكن عددها ليس فقط اثنين، في الأقل معها عشرة، والذئاب الأخرى في الكمين تنتظر الأوامر.

من دون استعجال، أعاد سانيا يده عن الحامل إلى الزناد، وباليد الثانية سحب ببطء سكينه الحربي ذا القبضة العظمية من الجعبة.

- أنا صيد صعب عليكم يا إخوتي، تمتم بها سانيا همساً، لن تمضي ساعة إلا وأقضي على ثلاثة منكم ...

همهم الذئب الرمادي على نحو مسموع بعض الشيء، وكأنه يجيب عن كلامه، لكن الذئب الأسود وقف كالتمثال تحدق عيناه مباشرة إلى عيني سانيا، ما جعل سانيا يرتجف، لكنه لم يغير نظرته. كان واضحاً أن الروائح الغريبة غير محببة للذئب: رائحة زيت السلاح، رائحة الفولاذ، رائحة تمويه العتاد. غيّر الذئبان وقفتهما من رجل إلى أخرى وكأنهما يفكران، أيهجمان أم لا.

اختفى الذئبان في ومضة عين واحدة كما ظهرا. في البداية، حتى سانيا شك في الأمر، ألا يمكن أن يكون تراءى لي كل هذا، أليس

من الممكن أني تشوشت كالرقيب رازوف في تلك المرة. كم مرة حملق في الاتجاهات المختلفة ونظر عبر منظار الرؤية الليلية دون أن يجد الذئاب أو آثارها، ولم يجد أي آثار على الدرب الحجري.

- إنه شيء عظيم، نفذتم كل شيء بدقة أيها الشبان، قالها سانيا في الظلام، ودُهِش شخصياً كم بدا صوته غريباً عنه.

مكث سانيا هناك ساعات عدة يسند ظهره إلى جذع شجرة البلوط محاولاً تجاوز ما قد حدث. وحده الهواء البارد القادم من الجبال، وكذلك بزوغ الفجر أعاداهُ إلى رشده. لم تكن هناك رغبة في النوم نهائياً، فقد استخدم في المساء السابق الوصفة الحربية القديمة، المكونة من ملعقة من القهوة الذوابة مع رشفة من الكحول النقي. يقضي على النعاس بالمطلق، والعينان تلمعان كـمصباحين يدويين كهربائيين. فقط قبل انبلاج الضوء، أحسّ بدوار في الرأس، وإحساس بسيط بالرغبة في الاستفراغ. ليس عبثاً ولا من فراغ أنه قِيلَ في روسيا القديمة «أتت المصائب - افتح البوابة»، على الرغم من أنه لم تحصل أي مصيبة لكنها كادت، بل كلمة كادت أقل ما يمكن أن يُقال.

عند بزوغ الفجر، لفَّ سانيا العازل القماشي، وتفقد محتويات جعبته كافة، ثم تثاءب مرتين متتاليتين، وبحذر تحرك باتجاه المعسكر.

على الطريق المؤدية إلى القرية في نقطة محددة أحس بألم ووخزة في القلب. قف أيها المقاتل. جلس سانيا بوضعية القرفصاء، نزع سيخ التنظيف عن بندقيته الكلاشينكوف وغرزه في الأرض حوله في مناطق عدة، لا شيء - المكان نظيف وآمن. بعد ذلك، حرك الأعشاب مفتشاً نحو اليمين ومن ثم نحو اليسار. أعمت عينيه الشمس المشرقة الساطعة، ولجزء من الثانية، على مسافة نصف متر أمامه، على الدرب مباشرة، شيء ما لمع بشدة ثم اختفى. تقدم سانيا تلك المسافة بطريقة «مشية البطة»، وبالسكين أخرج سلكاً أخضر اللون كان ممدوداً على مستوى الأرض تماماً، ومغطى بطبقة رقيقة من التراب. تتبع السلك شيئاً فشيئاً، وصُعِقَ عندما وجده ممدوداً باتجاهه، وتساءل في نفسه: أنا المستهدف؟ وجاء الجواب الضمني سريعاً: ومن غيرك؟ إذاً علي أنا. تعقبني ذاك المتوحش، أو من الممكن أن تلك الكائنات الليلية همست في أذنه.

اجججججج، اجججججججج، باخخخخخخ دوّى صوت طلقة، وكان الوقت كافياً فقط ليرتمي سانيا إلى اليمين على غير هدى. أزّت رصاصة فوق أذنه، فتدحرج سانيا من مكان وقوعه وأمسك بندقيته وبدأ بالتسديد، لكن إلى أين، أو على ماذا سيطلق النار. بحذر شديد، وبحرص غريزي، دقق النظر نحو كل شيء حوله، هناك إلى الأمام، وعلى مسافة عشرة أمتار اهتزّ غصن. إذاً، أنت هناك يا قره بورز، قالها سانيا في نفسه، وخطط بسرعة: سألتف عليك من اليسار. بانتباه وخفة، تقدَّم النقيب مناوراً إلى منطقة الهدف، وبقفزة عنيفة ارتفع في الجو وانقضَّ على مكان الكمين.

لم يتوقع الشبح منه تلك السرعة، وانكشف له، لجزء من الثانية، عندما لمع في الأمام، وكالبرق اختفى.

تعقبه سانيا منحنياً على الأرض، يتقلص على نفسه تارة، ويختبئ خلف شجرة تارة أخرى، وأحياناً ينثني مع تضاريس المكان.

«ليس طويل القامة، سريع الحركة جداً، يمكن وصفه بالرشيق، ويلبس زياً مموهاً أخضر اللون، إنه كزيّنا العسكري تماماً، انطبعت هذه الصورة في ذهن النقيب.

يعرف المكان عن ظهر قلب بشكل غير اعتيادي، ويتحرك بثقة، ويتسلل ويتوغل في بعض الأماكن، ويقفز متجاوزاً العوائق في أماكن أخرى كالقطة.

شاب؟ نعم، كأنه فتى مراهق أو فتاة. خطرت في باله «مادينا»، التي تخبز الخبز لهم، لكنها طويلة ونحيفة، من إذاً يكون؟ لقد أضعته تماماً، سأرتاح قليلاً وآخذ نفساً عميقاً ثم سأمشط الغابة بأكملها. حاول سانيا أن يأخذ شهيقاً عميقاً، لكنه لم يستطع حبس النَفَس تماماً كما حدث وقتئذ في طاجيكستان. غير بعيد في الأمام، سمع سانيا اهتزاز الأغصان، فتوارى مباشرة خلف أجمة، ووجّه بندقيته إلى الصوت. على الدرب ببطء شديد وتثاقل تحركت قدمان، كانتا تحملان امرأة عجوزاً، بدورها حملت العجوز على ظهرها المقوس حملاً من الأغصان، ومشت مباشرة باتجاه سانيا. بدوره هو حدق إليها من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين: منديل رأس أسود، فستان أسود بكمين طويلين، تنورة طويلة تصل إلى الأرض، في قدميها تنتعل حذاءً مفتوحاً. استندت على عصا، تأوهت وتنهدت.

هل الحمل ثقيل عليك أيتها الجدة، سألها سانيا؟ عينان نصف مغمضتين، شفتان مطبقتان، أنف نسر، حواجب لم يبقَ منهما شيء

فعلياً، أجابت: نعم، ولا شيء من الحكمة في ذلك، عمري زهاء المئة، كما أعتقد. من الجهة اليسرى تحت العين، يوجد جرح غير كبير لكنه مرئي. توقفت الجدة على مسافة شجيرات عدة عن سانيا، تنهدت بقهر، ومسحت بكفها العرق المالح ثم تابعت حركتها. تجاوزت النقيب بنحو المترين دون أن تميزه في الأجمة الكثيفة.

- يكفي، الصيد انتهى. لقد قطعتِ عليّ كل الخيوط أيتها الأم.

لا يجوز الظهور حتى لو كانت امرأة عجوزاً، إنها تبقى من ساكني الجبل الحذرين والمهتمين، وتستطيع التذكر.

جلس سانيا زهاء عشرين دقيقة إضافية ثم تحرك باتجاه مكان الكمين.

«إذاً، أنا جلست هنا القرفصاء، أطلقوا النار عليّ من ذاك الاتجاه، نعم وفقاً للخيط الذي تم تثبيته بحرفية عند جذر الشجرة. لولا أن الشمس فضحته لبقيت العمر كله دون أن ألاحظه. ثُبتَت القنبلة إلى حلقة وغُطِيَت بكمية من الصوف حتى أنها مجدولة كضفيرة - لم يتكاسل هذا المخرب، يبدو أنه يحب أن يحافظ على طريقته. نزع سانيا الضفيرة، وشمّ رائحتها، تحسس أنفه رائحة ضعيفة لكلب صيد أو لذئب.

الآن، لنعد إلى الخلف - يجب أن تطير الرصاصات في تلك الجهة، لنبحث عنها، فربما يحالفني الحظ على نحو ما.

جاب سانيا المكان برمته، وبعناية عاين كل شجرة وكل غصن، ها هي ذي... أحس بنصر من نوع ما، إنها تسعة غرامات في القلب.

في إحدى أشجار الجميز، خرقت الرصاصة اللحاء من الجهة الخارجية للجذع واستقرت فيه بشكل مائل، استخرج سانيا الرصاصة من مقرها بسكينه الحربية، ووضعها في راحة كفه وتفحصها بدقة وروية، قذفها إلى الأعلى ثم التقطها مبتسماً برضا ومضى عائداً إلى المعسكر.

- تعقبت الذئب، ممتاز أيها النقيب، قال قائد المفرزة العقيد ماكييف وهو يتفحص الرصاصة بدقة من جميع الجهات.

- لا يا كونستنتين إيفانتش، في الواقع هو من تعقبني، ليس هذا فقط بل نصب لي كميناً.

- تفحصها أيضاً بأسنانك أيها القائد، قال طبيب المفرزة كورنييف وهو ينظر إلى الرصاصة باهتمام بالغ.

- عيار ٩,٣٩ تُستخدم في القناصات الحربية، هذا النوع هو سلاحنا المستخدم في قوات المهام الخاصة لجيشنا، أنهى ستاركوف كلامه وسحب سيجارة من العلبة.

- هل تعتقد ذلك؟ رفع ماكييف نظره إليه.

- لا أعتقد بل واثق، أنا أعرف ذلك أيها القائد. أطلق دون أن أسمع أي صوت، كان يستخدم كاتماً للصوت.

- أين المناوب اليومي؟ هيا أحضر سجل المشاهدات والحوادث الطارئة وتعال إليّ، صاح القائد بعد أن توقف عند مدخل الخيمة وأزاح ستار بابها.

هرع إلى الخيمة مقاتل يحمل سجل مكتب قديم الشكل.

- ممتاز، ابحث عن مشاهدات شهر نيسان لهذا العام. هيا... هيا أسرع. العاشر أو ربما الرابع عشر من نيسان. هل وجدته؟ اقرأ.

وقف المناوب اليومي باستعداد وبدأ القراءة كمن يلقي شعراً:

- الرابع عشر من شهر نيسان، في الساعة ١٠,٠٢، بالقرب من قرية قره يورت، نُفّذَ هجوم على سيارة جيب واز تابعة للقيادة العسكرية ...

- ما يليه، هناك في السطر الثالث، قاطعه ماكييف فاقداً صبره.

- أين؟ نعم... نعم هنا: سُرِقَت بندقيتان آليتان طراز AK- 47 وقناصة واحدة من طراز BCK. سُجّلَ محضر في النيابة عن هذه الجريمة وفقاً لقانون الإرهاب رقم...

- يكفي، جيد يمكنك الانصراف.

- حاضر، قدم المناوب اليومي التحية العسكرية، وبخطى حثيثة خرج من خيمة القيادة.

- ذئبنا الأسود استعار قناصة حربية من القائد...

- أنا كنت أقول إن...، ومن جديد سحب ستاركوف سيجارة.

- كيف كان يبدو، صفه لنا.

- قصيراً، رشيقاً، يركض بسرعة دون أن يلتفت، ليس برجل بالغ، إما فتى وإما فتاة في مقتبل العمر، من السكان المحليين - هذا أكيد، كان يلبس بدلةً مموهةً.

- يركض جيداً، لكنه يسدد على نحو سيّئ، قالها الطبيب شارداً ومشدداً على كل كلمة فيها، وهو يقلّب الرصاصة في كفه.

- يبدو الأمر كذلك يا أندرييتش.

- ألم تشاهد وجهه؟ نقل القائد نظره إلى ستاركوف متسائلاً.

- لا، كل الوقت رأيته من الخلف ويغطي رأسه بطاقية.

- نعم... نعم أيها النقيب، ألقيتَ علينا مهمة جديدة. فتاااااة، فتاااااة، لا بأس نحن سنبحث بطريقتنا. أما أنت فأسند مهمة إضافية للمساعد كوليسنيتشينكو: ليسأل الأهالي ولينفذ البحث والتفتيش كل ليلة، انتبه يا سانيا الوقت يمر.

- حاضر أيها القائد، أطفأ سانيا سيجارته بكعب بوطه العسكري وخرج إلى الهواء الطلق.

كالعادة، مارس سيريوغا كوليسنيتشينكو عمله المفضل: قشّر البطاطا، ومن ثم دخّن. حسب كلامه هذا، بشكل أو بآخر يهدّئ جملته العصبية.

- أوه، زارتنا البركة... سلام يا سانيا، ابتسم المساعد مرحباً، تفضل اجلس إلى جانبي.

- رائع أيها الأخ ذو القلب الطيب، جلس ستاركوف وطلب منه سيجارة.

سحب كوليسنيتشينكو من جيبه علبة تبغ مسحوقة وقال:

- خذ، إنها الأخيرة يا سانيا، لم يجلبوا بعد. حدث انهيار صخور في الجبال تسبب في قطع الطريق الواصل إلينا. تواصلت مع الدفاع المدني ومع الطوارئ، لكنهم قالوا إنهم لن يقدروا على تنظيف الطريق وتأمينه للحركة إلا بعد أسبوعين.

- ما هذا الكلام؟ وماذا سيفعل في هذه الحالة أخونا المدخن؟

- سأعطيك بعض التبغ المفروم. هل تجيد لف السجائر أو أعلمك؟

- نعم أعرف ذلك، لكن من أين سنحصل على الورق؟

- من هناك، انظر إلى ذاك الاتجاه... إلى جانب المطبخ الميداني توجد دستة من الجرائد، أحضرها الأهالي. خذ قدر ما يحلو لك وعندما تنتهي ارجع إليّ ثانية. لديَّ أكوام منها، جميعها إصدارات قديمة.

- شكراً لك سيريوغا، دسّ سانيا كيساً مملوءً بالتبغ المفروم في جيب جعبته وأضاف: أردت أن أكلفك بمهمة سؤال الأهالي عن وجود شاب أو بنت بمهارات قتالية. اليوم صباحاً أنا رأيت ذاك الشبح. ليس شبيهاً بالذئب الأسود، لا من قريب

ولا من بعيد، أقرب إلى أن يكون فرخ ذئب، لكنه يجري في الغابة بخفة وسرعة قد يسبق فيها الغزلان.

- حسناً، موضوع سهل.

نهض سانيا بهدف الذهاب، لكنه أحس وكأن المساعد لم يقل كل شيء وعنده المزيد بعد، فسأله:

- هل هناك شيء ما قد حدث يا سيرغي؟

- نعم سانيا، منذ أسبوع وأنا أريد أن أسألك، لكن دوماً الوقت لا يكفي على نحو أو آخر، أتم كوليسنيتشينكو كلامه ونظر في اتجاه آخر.

من جديد عاد ستاركوف وجلس إلى جانبه.

- إذاً، اسأل ما بدا لك لو ترغب.

- يقولون: إنك قبل شهرين من هذه المهمة طلقت زوجتك...

- آه ها، هذا هو الموضوع إذاً، وماذا يقولون أيضاً؟

- في الواقع أنا شاهدت زوجتك السابقة مرتين ربما، تبدو امرأة لا ينقصها شيء.

- في هذا تكمن المشكلة، أما أنها تبدو لا ينقصها شيء فهو نقص كامل، كلها مزيفة...

- ألا تحس بالأسى تجاهها؟ على الرغم من كل شيء كم من السنين قضيتما معاً...

- سيريوغا، أقصر طريق على الإطلاق هو طريق الحقيقة. كيف يمكن أن نشفق على شخص يذرف عليك دموعاً كاذبة عند الفراق، يكتب لك رسائل كلماتها كاذبة، يخط دفاتر من الذكريات الكاذبة، يفرح ويغني لك الأغاني على الغيتار فتكتشف أن كل هذا نفاق، قل لي كيف؟ كل شيء طبيعي، وأنا لا أتحسر على أي شيء في هذا الأمر...

- إن ما تقوله غير سار أبداً...

- أيها المساعد، هل سمعت أي شيء عن فترة التقادم؟

- طبعاً، نحن نخدم في الشرطة معاً، حقوقيين وأي حقوقيين - غير واضح، طبعاً سمعت عنها وأعرف ما يكون هذا...

- في كل جريمة يا سيرغي توجد فترة تقادم. في أي جريمة كانت حتى لو كانت جريمة قتل، لكن شيئاً واحداً لا يستطيع

الناس غفرانه نهائياً، إنه الخيانة. على ما يبدو تُعدُّ خيانة شخص أو أناس يثقون بك هو أكثر عمل خسة وخطورة. للخيانة لا توجد فترة تقادم فلا تموت بالتقادم...

- هذا صحيح بأكمله يا سانيا، عبس المساعد وتابع كلامه: أنا تحدثت بالأمر لأن بالينا إيفانوفنا (زوجتي) أرسلت إليّ رسالة من البلد منذ نحو أسبوعين مضيا وكتبت فيها أنها التقت بطليقتك وشاهدت كم هي امرأة قلقة ومحتارة، وطلبت إليّ أن أسألك، إن أنت هدأت وصفحت عنها. أما الآن فأنا شخصياً أرى أن الأمور تمضي على النحو الصحيح، والخونة يجب أن نحذفهم من ذاكرتنا، من قلبنا، من حياتنا، ودونما شفقة، يكفي، سنغلق هذا الموضوع. أما فيما يخصّ الفتى فسأسأل كما يجب، ويمكنك ألا تقلق بهذا الخصوص، سأفعل ذلك على النحو الأمثل.

هذه الليلة، كان الظلام دامساً، اختفى القمر خلف السحب السود. نظر سانيا إلى السماء، كانت الغيوم مشبعة وممطرة، وصباحاً سيهطل المطر، وأي هطول للمطر، فقد اختبر ذلك بنفسه وليس سماعاً. فكّر النقيب: «من الجيد أنه لا ضوء للقمر، المراقبة بمنظار

الرؤية الليلية سيكون أسهل». وأخرج من جعبته صديقه القديم «المنظار».

في الواقع لم يَحْتَج مراقبة القرية والطرق المؤدية إليها، من مكان قريب جداً إليه على مسافة نحو خمسين متراً سمع في البداية هديراً، تلاه عواء ذئاب، ومن ثم صراخ تقشعر له الأبدان.

بسرعة وهدوء، جمع سانيا ذخيرته وحضّر سلاحه للرمي، وانطلق باتجاه الصوت. تسلّلَ بحذر ونظر عبر فجوة في السور المصنوع من جذوع خشبية قديمة، في أقصى الساحة، جثم قفص خشبي كبير مُدَعّم بأسلاك فولاذية، وفي القفص تحرَّك شخص. تارة جلس على قدميه، وتارة أخرى يبدأ بالقفز إلى درجة أن ضرب برأسه سقف القفص، وطوراً يتحول إلى وضعية ذئب. نظر سانيا إليه من خلال منظار الرؤية الليلية: كان يجلس القرفصاء ويمط رأسه للأعلى ويعوي بطريقة الذئاب، وكم كانت كبيرة كمية الوجع والكرب في هذا العواء إلى درجة أن القشعريرة سرت في جسم سانيا بشكل لا إرادي. وعبر منظار الرؤية الليلية برقت عينا الشخص كجمرتين متقدتين كما برقت عينا الذئب في المرة السابقة.

«صحيح، في هذا الوضع ليس الوقت مناسباً لإنجاز أي عمل، فمن الممكن ارتكاب خطأ فادح، لربما في اللحظة القاتلة خطر في باله خاطر ما، على ما يبدو أنه لا يراني، وهذا من حسن حظي، وغالباً هو لا يتظاهر بذلك بل فعلياً هو لم يحس بي لأنه لا يعرف أني أراقبه ولا يمكن الركون إلى شخص كهذا».

ترددت أصوات عدة في الجبال، رحَّبَت الذئاب ببعضها بعضاً. في القرية، نبحت الكلاب بشدة، صرّت الأبواب مراراً عند فتحها وإغلاقها. حان الوقت للعودة، وماذا يمكن لـ سانيا أن يفعل؟ في خضم هذه الخطورة والعبثية لا يمكن أن تنصبَ كميناً.

جلس سانيا قرب الموقد يلف سيجارة، بالفعل من دون تدخين يصبح الوضع أصعب. في بداية الأمر كاد يُخرِج رئتيه من صدره، تبين أن التبغ المفروم مركّز جداً. بالقرب منه وُضِعَت دستة الجرائد القديمة المصفرة، يدا المقاتل الواثقتان مزقتها وقطعتها دونما شفقة، واستخدم المزيد من هذه الأوراق لإضرام النار في الموقد، فقد صادف أنَّ الحطب لا يزال طرياً إلى درجة كبيرة، ولم يجف بعد. منذ صباح أمس هطل المطر رذاذاً ناعماً، الآن يمكن المكوث وتحضير لفافات التبغ لأسبوع كامل إذا حالفني الحظ. في أثناء تقطيع الورق،

وقعت في يديه مجلة القوقاز الرياضية، وقرأ فيها جداول مباريات بطولة كرة القدم، والأسماء القديمة للنوادي: نادي «زاريا» نعم كان ثمة فريق كهذا - الآن (فوروشيلوف غراد)، في أعلى قائمة الجدول أسماء الفرق التي لعبت جيداً على ما يبدو، وقرأ «دينامو» حالياً (تبليسي)، آرارات الأرميني و...

نبش سانيا رزمة الجرائد مستطلعاً، أحياناً قرأ العناوين، وأحياناً أخرى رماها مباشرة في الموقد.

فجأة، سرت حالة توتر في جسمه، عبرت أوصاله وتركزت في رأسه واخزة دماغه، كما لو أنه فَوَّتَ للتو أمراً مهماً جداً. نهض سانيا محموماً ينظر ويحدق إلى الجرائد التي نبشها، بحث بعينيه في جداول المباريات والمقالات القديمة.

من إحدى الصفحات أطلت ونظرت إليه فتاة جبلية يافعة وجميلة مع عنوان: «فخر جمهوريتنا - أمينة آدييفا، بطلة الاتحاد السوفييتي الرياضية في الخماسي، الفائزة ببطولة الشباب في الاتحاد السوفييتي»، ثم ماذا؟ قلّب سانيا الجريدة، وقرأ التاريخ: ٢١ أيار ١٩٧١م. لكن ما دخل كل هذا بقضيته، لماذا يهتم؟

لا... لا، لقد شاهد هذا الوجه سابقاً في مكان ما، عينان لوزيتان... حاجبان أسودان مقوّسان... أنف نسر... شفتان عفيتان مشدودتان... من جهة اليسار تحت العين جرح ليس كبيراً لكنه واضح.

سيريوغا، سيريوغا، دخل سانيا مسرعاً خيمة فصيلة التأمين. نهض كوليسنيتشينكو ملهوفاً من على السرير الخشبي فاصطدم رأسه بالعارضة الخشبية وقال:

- ماذا دهاك يا سانيا، ماذا حدث؟ هل هناك حريق؟

- هيا تذكر: امرأة عجوز، عيناها رماديتان... لها أنف نسر مقوس... طولها تقريباً متر وستون سنتمتراً... اسمها أمينة، هل تعرف امرأة بمواصفات كهذه؟

- نعم، أعرف، وماذا في ذلك، عرّجت علينا مرتين. كانت تبحث عن معزاة، تعيش في منزل منفرد على طرف القرية، وحيدة... قليلة الكلام.

استدار سانيا هامّاً بالحركة، فسأله سيريوغا: إلى أين أنت ذاهب؟

لكن سانيا هرب بسرعة خارجاً من الخيمة.

- عديم الحيلة، فعلتها به تلك العجوز، قال المساعد وهو يمسح رأسه مكان الصدمة.

وصل النقيب ستاركوف إلى خيمة القيادة، ودخل، ومن دون مقدمات وضع الجريدة على الطاولة أمام القائد، وقال مؤشراً إليها:

- إنها هي.

أزاح العقيد ماكييف الخريطة جانباً ونظر إلى ستاركوف مذهولاً

- إنها هي الشبح، كرر النقيب.

- فهمتك، هيا بسرعة، باشر العمل.

- في ذلك اليوم صباحاً، أنا طاردت الشبح في الغابة، وقتها التقيت بها. إنها هي قره بورز. في الحقيقة، هي تظاهرت يومها بالشيخوخة والإنهاك، لكن أن تجري متسابقاً معها فسترهقك حتى الموت.

قرأ ماكييف المقالة سريعاً بعينيه، وصاح:

المناوب اليومي، اطلبوا المناوب اليومي!

- في التو دلف إلى الخيمة الرقيب رازوف، التفت القائد إليه وقال:

- هذا أنت أيها المقاتل، أعطِ أمراً: «إلى السلاح». الآن ستتعادل نحن مع شبحك. نفذ ذلك يا رازوف لكن دون أي ضجيج أو صخب أو حركات زائدة، مفهوم؟

- حاضر أيها الرفيق العقيد، قالها واختفى الرقيب بلمح البصر، هازاً أرضية الخيمة خلفه.

على نحو سريع ومتقن، نفذت جماعة المهام الخاصة عملها بتطويق المنزل الواقع على أطراف القرية، كان الطوق دائرياً محكماً وقريباً إلى المنزل.

- رفيقي العقيد، هل تسمح لي أن أقبض عليها بنفسي؟ لقد تعقبت آثارها لمدة أسبوعين ونصف دون كلل، قال ستاركوف ناظراً إلى القائد نظرة كلها أمل ورغبة في الموافقة.

- حسناً، هيا يا سانيا، لكن نفذ بالطريقة التي علمتكم إياها. لا تنسَقْ وراء المشكلات في أثناء التنفيذ، إذا واجهتكم العجوز وأطلقت النار فتوقفوا واحتموا ثم عودوا إلى الخلف بشكل منتظم، ونحن سنرمي منزلها بالقنابل. بعد ذلك تنجزون

عملكم دون مخاطرة. اقبض عليها وخذها إلى مقر القيادة، وسلمها في النيابة حسب الأصول. آه صحيح، من الممكن ألا نجد أي شيء في منزلها فربما هي تخفي كل ما يخص عملها في الغابة قبل عودتها، عندها يتوجب عليك إثبات تورطها في هذا الأمر، واضح أيها النقيب؟

- نعم واضح يا كونستنتين إيفانتش. لا شك في أنها حذرة جداً، ولكن سأهبط عليها كما يتساقط الثلج على الرؤوس، على نحو غير متوقع ودون أن يحسَّ أحد.

- إذاً، هيا... هيا، نفذ... كَثُر الشرح والكلام، قال العقيد مبتسماً، لكنَّ القلق كان بادياً على محياه.

زحف سانيا على بطنه حتى وصل إلى المنزل. نظر بطرف عينه خلال النافذة، كانت الستائر مسدلة بشكل محكم، لكن على الرغم من ذلك، ظهر ضوء شحيح داخل البيت. بحرص شديد تحرك ستاركوف باتجاه الباب، رمقه بنظرة سريعة، لم يكن عليه أي قفل من أي نوع كان.

سحب الباب الخارجي فانفتحَ من دون أي صرير. نقل سانيا عبر العتبة بهدوء شديد قدماً واحدة أولاً، ومن ثم نقل الثانية

وولج إلى الداخل. مكث في الردهة، وأخذ نفساً عميقاً، جاهد أن يكون هادئاً لأن قلبه كان يدق باضطراب. بحرص شديد فتح سانيا الباب الداخلي ونفّذ قفزة احترافية إلى الداخل. ساد الهدوء في الداخل باستثناء صوت تكات ساعة قديمة معلقة على الحائط. على الطاولة وُضِعَ فانوس يعمل على الكيروسين، إلى جانبه جريدة عليها نظارة قراءة طبية ومجموعة من الأنياب الذئبية مشكوكة في خيط. حوّل سانيا نظره إلى اليمين وشاهد على الأرض بالقرب من سرير خشبي واطئ لغمين مضادين للدبابات، وُضِعَ عليهما بشكل هرمي لغم مضاد للأفراد أمريكي الصنع طراز «كليمور»، ولمع منه ضوء يتناوب بين الأحمر والأخضر. «إنه يتحسس الحركة وسيتحرض، لن ألحق»، خطرت الفكرة في بال سانيا.

آخر شيء رآه سانيا أن الألغام كانت قديمة وصدئة، وكذلك كانت هناك عينا أُمّ. بعد ذلك لمع برق في ذاك الصمت.

دوى صوت انفجار على نحو مفاجئ في القرية. أدارت فخر الجمهورية «أمينة آدييفا» البطلة الرياضية للاتحاد السوفييتي في مسابقات الخماسي رأسها ونظرت من الجبل إلى الأسفل باتجاه القرية، كانت أشرطة دخان أسود تتناثر في سماء القرية. لم تظهر على

وجهها الذي غضنته التجاعيد أي تعابير: لا سعادة، لا شفقة، لا دهشة، ولا حزن. على معصمها من جهة إلى أخرى تدلت سبحة مصنوعة من أسنان ذئب.

عدّلت أمينة حزام حقيبة ظهرها العسكرية، وبمشية واثقة خَطَتْ إلى الأعلى على الدرب الجبلي الضيق.

* * *

ليبيتسك

٢٠١٤- ٢٠١٥م

خاتم بفصّ من عقيق
أو حوار مع شخص غريب

هبت ريح باردة من الخانق، قذفت في وجه دينيس حبيبات ثلجية جبلية باردة. مسح دينيس جبينه براحة كفه وشد أطراف ردائه العسكري الدافئ بشكل محكم ولصيق على جسمه.

تنشط دينيس بعض الشيء ورمى غصناً في الموقد شبه المنطفئ. سُرّت النار مباشرة بالوافد الجديد واشتعلت مبتهجة إلى درجة أن ألسنتها بدأت تلعق الهواء الجبلي الشفاف.

أسند دينيس بندقيته الحربية إلى ركبته، أخرج من جيب سترته علبة سجائر بنكهة النعناع، فتحها بعناية وسحب منها سيجارة واحدة، دسها بين شفتيه الباردتين، وتناول من الموقد غصناً مشتعلاً وأشعلها بطريقة سينمائية.

لمّا أعاد دينيس السجائر إلى جيبه اصطدمت يده بشيء ما بارد، دسّ أطراف أصابعه الخدرة باحثاً في جيبه القماشي الناعم، لكنها وقعت على فتات التبغ والخبز.

- لكن، أين أنت؟ همس دينيس في نفسه، ها ها هذا هو.

حينها أخرج دينيس من جيبه خاتماً بفص من الحجر، مسحه أكثر من مرة بِكُمّ سترته وبعد كل مرة نظر إليه بتمعن.

وَجَدَ هذا الخاتمَ منذ أسبوع مضى، عندما نُفّذَت عملية عسكرية بالقرب من بلدة «إيتوم كالي» وقد شارك فيها دينيس مع رفاقه المقاتلين. جرى الموضوع بكل بساطة، انبطح دينيس لمدة أربع ساعات في دشمته مفترشاً تحته غطاءً مطاطياً يستخدمه عادة القناصون، لما انتهت العملية بالكامل، وأُعطيَ الأمرُ: «انصراف، الاجتماع في القاعدة»، حدث كل شيء. جمع «ميتكا كوروتييف» أشياءه بسرعة وهرول إلى السيارة بمشيته الخفيفة المعتادة، أما دينيس فنهض متردداً، وعند رفعه للغطاء المطاطي، وبالمصادفة المحضة، اصطدم حذاؤه بجذر شجرة ثخين بارز من الأرض. نتيجة للصدمة تبعثر التراب من حول الجذر، وبرق شيء ما تحته. انحنى دينيس والتقط هذا الشيء، رفعه... وضعه في راحة كفه... نظر إليه ولم يصدق ما رأت عيناه. كان في راحة كفه خاتم ثقيل، غالباً مصنوع من الذهب، ملتو بعض الشيء، يزينه حجر كبير ذو لون أحمر لامع، نُقِشَت عليه كتابة ما في هيئة شكل ثماني الرؤوس.

كانت الكتابة بأحرف غير معروفة ولا مفهومة لـ دينيس، لكنها بالتأكيد ليست أحرفاً عربية، فقد سبق لـ دينيس أن شاهد الخط العربي في أكثر من مناسبة سابقة. كذلك ليست الكتابة بالأحرف الشيشانية، وهذا أيضاً مؤكد. فوق الكتابة ثلاثة أشكال منفذة في شكل عناقيد العنب. قلّبَ دينيس الخاتم في يديه مستطلعاً إياه باهتمام بالغ، مستغلاً عدم استدعائه للعودة بعد، من ثم خبأه ولم يُرِهِ أو يخبر عنه أحداً. الشيء الوحيد الذي فعله هو إعادة نسخ الكتابة على ورقة، وحاول استيضاح ماهية المكتوب أو على الأقل بأي لغة كُتب. حتى إنه، في وقت لاحق، طلب مساعدة مُلّا[1] المنطقة وأطلعه على الكتابة، رمق الملّا الكتابة بنظرة ثم أشاح بوجهه وهز رأسه نافياً معرفتها. جاء الحظ بعد أن تسلل اليأس إلى نفس دينيس وملَّ الانتظار، جاء الحظ على يد زميل له في الخدمة اسمه «موسى فايسفيلد».

- انتظر... انتظر... قال موسى عندما شاهد الورقة ذات الكتابة، هذه الكتابة بلغة «إيفريت»[2]... بالتأكيد هذه «إيفريت»، حتى

---

(١) ملا: شيخ أو إمام.

(٢) إيفريت، إيديش لغات قديمة لم تعد مستخدمة حالياً.

من الممكن أنها «إيديش». إنها أقدم حتى من اللغة العبرية. في زمن ما علمني جدي هذه اللغة، وقتها أنا قرأت التوراة والتلمود. هذا النوع من الكتابة يدعى كتابة صوفية، حتى إنني أستطيع أن أخوض في محاولة قراءتها.

دعني وشأني، لا أصدق تخريفاتك هذه... تنفس دينيس بعمق، لكن حاولْ فلن نخسر شيئاً، وإن فككت طلاسمها فسأكون مديناً لك لقرن من الزمن.

- «سيمخا ب ك ر يوسف الزاكن زي» قرأ موسى وختم: هذا كل شيء.
- نعم، لقد فهمت أيضاً أن هذا هو كل شيء يا موسى، لكني لم أفهم المعنى.
- صحيح، أنا أيضاً لم أفهم المعنى، لكن هذا هو المكتوب هنا. أما بما يخص الترجمة الدقيقة والمعنى فأنا أستسلم، لقد قلت لك إن جدي أجبرني على تعلمها في فترة الطفولة.

عند ذلك كتب دينيس ترجمة المكتوب بصعوبة على تلك الورقة نفسها.

أنهى دينيس عامه الثاني من خدمته العسكرية، وبدأ بالتحضير للتسريح من الخدمة، والتفكير في مرحلة ما بعد الخدمة العسكرية، على الرغم من أنه في زمن الحرب الشيشانية أن تخطط لشيء ما للمستقبل يشبه التنجيم بقراءة فنجان القهوة.

للشهر الثالث على التوالي نفذت فصيلة دينيس العسكرية حاجزاً للتفتيش على الطريق الواصل بين بلدتي «غوديرميس» و«كورتشالا». كانت الطريق تسير بشكل موازٍ للوادي النهري حتى الأفق المنظور، ومن ثم تختفي بين المنحدرات الجبلية الساحرة.

لم يكن لدى المقاتلين من وسيلة للتدفئة سوى إشعال الحطب وشرب الشاي الساخن، لكن الخريف اقترب، والليالي أصبحت أكثر برودة في جبال كهذه، حتى إنه أحياناً تساقطت ندف من الثلج في الصباح الباكر، ما زاد في تعكير المزاج.

رفع دينيس الخاتم فوق رأسه، ومن جديد نظر إلى الحجر فيه مستطلعاً بكثير من الاهتمام. بدا الحجر أكثر جمالاً في ضوء اللهب المتراقص، وبدت كل درجات اللون الأحمر فيه: من البرتقالي الفاتح حتى البنفسجي، وأحياناً حتى الليلكي.

- ما هذا الحجر؟ فكر دينيس متسائلاً إلى درجة كأنه لفظ هذه الكلمات في حين كان يضع الخاتم في إصبعه.

- هذا من العقيق الأحمر، جاءه جواب.

ارتجف دينيس وتلفت حواليه. قريباً منه جلس شخص يلبس رداءً طويلاً أسود يغطي رأسه وقسماً من وجهه بـ طاقيته. مشى هذا الشخص طويلاً على الطريق، وفقط في هذه اللحظة، وصل وجلس يتدفأ قرب الموقد، وهذا كان واضحاً من حركاته: كيف ينفض الرداء من الرطوبة العالقة عليه، وكيف يجلس قريباً إلى النار طاوياً رجليه.

كان غريباً تماماً أن دينيس لم يشعر بأي ذرة من الخوف، ولم يثر أي فوضى على الرغم من أنه كان ينفذ مناوبته على حاجز عسكري. كان الغريب يتصرف ببساطة شديدة، من الممكن أنه من مقر القيادة وقد ضلّ طريقه؟ خطر في بال دينيس... أو ربما يكون أحد قادة سرية الاستطلاع، حيث إنهم على نحو متكرر يجوبون هذه الأنحاء ليلاً.

في أثناء ذلك، أرجع الغريب طاقيته إلى الخلف قليلاً ومد يده بطلب سيجارة. ذهل دينيس من هذه الوقاحة، لكن على الرغم من ذلك أخرج من علبة السجائر واحدة وقدمها للغريب.

دخن الغريب بحذاقة ماطاً جذعه ومبادلاً بين رجليه المنهكتين من طول الطريق، ثم استأنف الكلام:

- أنا أقول إن هذا الحجر من العقيق الأحمر، تابع الغريب كلامه على الرغم من أن أحداً لم يسأله، إنه يحمي من المصائب ويساعد في المحافظة على الحب الصادق والوفي. العقيق الأحمر ولفظه في اللغات السلافية «سيردوليك»، وهي كلمة مشتقة من إحدى كلمتين إما «ساردونيكس» وإما «ساردیون»، لكن في الأغلب أصل التسمية مرتبطة بجزيرة ساردينيا في البحر المتوسط، حيث استحصلوا على هذا المعدن الطبيعي، أو «وهذا احتمال وارد أيضاً» أصل التسمية مرتبط بمدينة ساردا، التي كانت عاصمة لمملكة ليديا[1] القديمة والتي منها نُقِلَت الأحجار

(١) مملكة ليديا - إحدى الممالك القديمة المندثرة.

الكريمة إلى كل الأسواق العالمية. في زمنها، كان يُمَيِّزُ حجر العقيق من خلال لونه: نفوذية للضوء عميقة وصباغ متدرج.

- النفوذية... خرج صوت دينيس كالصدى.

- نعم... نعم... عميق النفوذية، كما أنتم تخيلتم النفوذية لشعاع الضوء. العقيق الأحمر يجلب الحظ لمواليد شهر أيار، هل أنتم مولودون في شهر أيار؟

- لا، قالها دينيس هازاً رأسه بالنفي، وأضاف: أنا مولود في نيسان.

- أما أنا فقد حالفني الحظ وولدت في السادس والعشرين من شهر أيار يوم الخميس، في يوم عيد صعود الرب نفسه، ولدت في الشارع الألماني، في العاصمة موسكو. أتسمحون لي بإلقاء نظرة؟ ثم مد الغريب يده باتجاه الخاتم.

- طبعاً ممكن، تفضل... نزع دينيس الخاتم من إصبعه وأعطاه إياه.

رفع الغريب الخاتم فوق رأسه مستطلعاً تشكلات ذاك الحجر، بدايةً، سرت رجفة هائلة على وجهه المغطى بالطاقية، ومن ثم

في كامل جسده. بدا لـ دينيس أن المسافر يضبط نفسه بصعوبة ويخفي خلجات نفسه في داخله، لكنه بسرعة تماسك وعاد إلى سابق حاله.

- لهذا السبب سُمّي هذا الحجر بالعقيق الأحمر، فشكله الأحمر شبيه بلحم السمك المجفف في جزيرة سردينيا. هذا الحجر رائع للغاية، ويملك قوة شفاء: الأطباء يداوون به القروح والجروح الناتجة عن الإصابات بالسيف. ذكر الغريب ذلك ونظر إلى دينيس، ثم تابع:

- أنا أقتبس مما قال أسقف عيد الغطاس في جزيرة كريت، بالأصح من مقالته «عن اثني عشر حجراً على ثوب رئيس الكهنة هارون»، المكتوبة في القرن الرابع.

من جديد، نظر الغريب إلى الخاتم بتمعن وانتباه شديدين، ثم تابع:

- خاتم النقش، همس الغريب كلماته همساً.

- النقش؟

- هذا يعني أن هذا الخاتم لم يكن مجرد خاتم بل ويستخدم كـ ختم. ابتسم الغريب واستطرد في الحديث: بهذا الخاتم أو الأصح بخاتم مثله تماماً أنا ختمت رسائلي الخاصة وأوراق الأرشيف، ولم يفارقني نهائياً، وكنت أعده تعويذتي الخاصة. كنت أضعه في الإصبع الوسطى لليد اليمنى، بجانب خاتم الزواج، في هذا المكان... أترى؟

- هكذا إذاً، كان لديكم خاتم مثله تماماً؟

- نعم. قالها الغريب بصوت باهت، ومن جديد ألقى نظرة إلى النقش على الحجر، وأضاف: «تماماً مثله». تمتم كلماته بذهول كامل.

- إذاً، من المحتمل أنكم تعرفون ماذا نُقش هنا؟

- طبعاً، هذا معروف.

- ترجَمَ لي صديقي ما هو مكتوب، لكن أنا لم أفهم أي شيء مما قال. ثم أخرج دينيس الورقة المجعدة ومدها باتجاه الغريب.

- لقد ترجم صديقكم الكتابة بشكل صحيح بالمطلق. واضح أنه رجل عالم إلى درجة كبيرة.

- رجل عالم؟ تذكر دينيس صديقه موسى النحيف والمرتبك، وابتسم بشكل لا إرادي.

- على فكرة، «تابع المحاور الكلام دون أدنى حرج»: أنا أستطيع فك شيفرة المكتوب على النحو التالي: «سيمخا، ابن الحاخام الجليل يوسف، نعم ذكراه مباركة».

- هذا يعني أنه نقش دراماتيكي؟

- في الأغلب، مثلاً، أُهدِيتُ شخصياً خاتماً مماثلاً تماماً لهذا، أهدتني إياه الكونتيسة إليزابيت كسافيرييفنا[1]. حدث هذا في فصل الخريف، وتحديداً في شهر أيلول. في هذه اللحظة، مسح الغريب عينيه براحة يده كأنه تذكر شيئاً منغصاً، وأضاف بحسرة: نعم، في أيلول، في مدينة أوديسا، بعد ذلك كنت مضطراً إلى مغادرة هذه المدينة الرائعة. لقد انتظرت أمراً لمدة عامين وابتسم ابتسامة المذنب.

---

(١) إليزابيت كسافيرييفنا - أميرة عاشت في مدينة أوديسا في الفترة (١٧٩٢ - ١٨٨٠).

«حيث المتعة في الحرملك،

حيث يقضي المسلم أياماً،

هناك فتاة ساحرة، مداعبة،

أهدتني تعويذة...» - بدأ الغريب القراءة متمايلاً.

- هل تتذكرون هذا؟ سأل الغريب.

- لا، هز دينيس رأسه نافياً، لا... لا أتذكر!

- وهذا، هل تتذكره: «احفظيني يا تعويذتي،

احفظيني في أيام الاضطهاد،

في أيام الندم، أيام القلق،

في أيام الحزن منحوني إياكِ...»

- نعم، أتذكر شيئاً ما يشبه ذلك، هل هذا الشعر لـ بوشكين؟

- بوشكين، زفر الغريب زفرة حارة. لاحقاً، هي كَتَبَتْ لي، لكنني بعد أن قرأت رسالتها أحرقت الورقة في الموقد.

- أحرقتموها؟

- أنا وعدتها بذلك، فقد كانت متزوجة. كان زوجها قاهراً فائق القوة، كان حاكماً لمنطقة نوفوراسيسك[1] وشبه جزيرة القرم، بطلاً من أبطال الحرب الوطنية. بالمناسبة، وفقاً للرواية المتناقَلَة فإنّ هذا الخاتم أُهدي إلى أسلاف الكاراماشكي «شاهين غيراي»[2] ومنهم وصل إليه، وقد أُعدِمَ الكاراماشكي شاهين بعد ذلك على أيدي السلطة العثمانية لأنه كان موالياً ووفياً للقيصر الروسي.

- وبعد ذلك، ماذا حدث معكم؟

- بعد ذلك، ردَّ الغريب شارد الذهن، وعلت وجنتيه حمرة واضحة، وسُمِعَ في صوته رنة حديدية، وسرت من جديد في جسده رعشة: بعد أعوام عدة تسلّمتُ طرداً بريدياً، أنا لا شك، أعرف من فعل هذا! نعم، أعرف يا سيدي! هل تعلم ماذا كُتِبَ هناك؟ إذا سمحتم! نظر الغريب إلى دينيس، ثم تابع: «فرسان الدرجة الأولى، قادة وفرسان

---

(١) مدينة روسية على شاطئ البحر الأسود.

(٢) شاهين غيراي: (١٥٨٥-١٦٤١) - حاكم شبه جزيرة القرم والجنوب الروسي إبان سيطرة الإمبراطورية العثمانية على تلك المنطقة.

الوسام البراق للأزواج المخدوعين، المجتمعون في الكابيتول العظيم برئاسة المحترم سيد الوسام، بوجود سعادته ناريشكين د. ن. بالإجماع انتُخِبَ السيد بوشكين مساعداً للسيد العظيم لوسام الأزواج المخدوعين، ومؤرخاً للوسام. السكرتير الدائم الكونت بورخ». هل ترون؟ أنا حتى الآن أتذكر هذا التجريح غيباً، لقد قرأته عدداً لا يحصى من المرات. آه يا ناتالي! قالها الغريب وأمسك رأسه بكلتا يديه، ثم استأنف حديثه: لو أنك تدركين أي ثمن دفعت من جراء رعونتك. ضحك الغريب بمرارة، وتابع: الرائع، ضابط فوج الفرسان، ذو الاثنين وعشرين ربيعاً، لكنه غير متعلم، غير مقيد، ولا يجيد التصرف في المجتمع بعد على الإطلاق، والعينان، دوماً لم تعجبني تلك العيون التي تشبه عيون السمكة، التي لا تلمح فيها حتى ظل الأفكار.

- وماذا حدث لاحقاً؟ قال دينيس دون أن يحول نظره عن الغريب. في هذه اللحظة أحس بالاهتمام من قبل محدثه، الذي مد يده من جديد يطلب سيجارة، ولّما حصل عليها أخذ يدخن بكل احترام.

- على نحو عام، أنا أفضل الغليون. سألتني ماذا حدث بعد ذلك، بعد ذلك أنا أرسلت إلى هذا الفرنسي رسالة طلبته فيها للمبارزة. في البداية، هرع إليّ زوج أمه «غيككيرن» ورجاني أن نؤخر المبارزة ليوم واحد، ومن ثم لأسبوعين. على الرغم من ذلك، حصلت المبارزة. هنا، عصر الغريب الخاتم بيده بشكل هائل إلى درجة أن يده ابيضَّت، وبعد كل شيء، وبشكل مبتذل إلى درجة كبيرة، بشكل ما حتى قبل عطلة نهاية الأسبوع اشترينا المسدسات من متجر كوراكين وانطلقنا إلى منطقة النهر الأسود، وتحديداً إلى مزرعة القائد العسكري. كان معي رفيقي منذ المرحلة الثانوية «كوستيا دانزاس»، اسمه الكامل «كونستانتين كارلوفيتش دانزاس»، كان هو من طرفي الشاهد المحكم على المبارزة، الذي عانى بسبب ذلك لاحقاً. في تلك الأعوام، كان قد أصبح مقدماً في سلاح الهندسة. أعطيتهُ هذا الخاتم قبل بدء المبارزة. لم تكن لديَّ رغبة في أن تحميني هذه التعويذة من الطلقة، لقد بقيت نظيفاً حتى النهاية.

«قلت له: خذ الخاتم يا كوستيا، إذا قدر الله وفزت أنا، ترجعه إليَّ بعد المبارزة، أما إذا لم يقدر، فأنا أهبه لك شرعاً».

بعد ما حدث، أُرسِلَ كوستيا إلى منطقة القوقاز قائداً لفوج «التينغين» في مكان ما هنا، وأشار الغريب بيده باتجاه الجبال. وقد أسقط كوستيا الخاتم في إحدى المعارك وضاع منه. ابتسم الغريب وأضاف: زيادة على ذلك، بعد حدوث هذا، وضياع الخاتم، اعتبرَ المقدم كوستيا دانزاس ذلك إشارة سيئة، لذلك غادر المقدم القوقاز نهائياً على جناح السرعة، وتقدم بطلب إنهاء خدمته العسكرية. بالفعل، حصل كوستيا على التقاعد، وعاش بعدها مدة طويلة، وعندما أزف الأجل مات على فراشه.

نظر دينيس إلى الغريب مستمعاً، وكان يستحضر لوحات الأحداث التي سردها الغريب، وتمر كشريط أمام عينيه.

- هكذا إذاً، هذا خاتمكم يا ألكساندر سيرغييفيتش[1]؟ سأل دينيس بهدوء.

- هزّ الشاعر رأسه إلى الأسفل دلالة أنه خاتمه.

---

(١) الاسم الكامل لشاعر روسيا العظيم: ألكساندر سيرغييفيتش بوشكين.

- إذا كان خاتمكم فها هو ذا، خذوه.

- أأنتم لا تمانعون في ذلك، أليست خسارة لكم؟ نظر بوشكين إلى دينيس مستفهماً وأضاف: أنتم سمحتم لي بالتدفئة، وكذلك استمعتم إلى قصص تاريخي باهتمام شديد، وأنا مدين لكم بالكثير لأجل ذلك.

- خذوه! في جميع الأحوال، ربما كنت سأبيعه أنا، أما بالنسبة إليكم فهو غالٍ جداً كما تلك الذكريات.

نهض بوشكين، ورفع راحة يده إلى مستوى عينيه مستطلعاً الخاتم، ثم انحنى بكل تواضع ومضى يمشي على الطريق الوعرة، لكن بخطى واثقة.

- دينيس، ماذا بك؟ هل أنت نائم؟ دفع ميتكا كوروتييف دينيس من جنبه، هيا اذهب، الآن دورك للمناوبة في دشمة الرشاش وأنا سأبقى هنا وأتدفأ قليلاً!

- ميتكا، ألم يمر أحد ما الآن على هذا الطريق باتجاه منطقة كورتشالويا؟

- ماذا بك يا دينيس، هل فقدت عقلك نهائياً؟ طبعاً لم يمرَّ من هنا أي أحد! بالقرب منا حتى الجرذ لا يستطيع التسلل!

نهض دينيس وحمل بندقيته الباردة من حمالتها، ثم عدل وضعية خوذته على رأسه ومضى باتجاه دشمة الرشاش. بعد هنيهة، توقف وبدأ البحث في جيوبه، لم يجد أي شيء. أحس كأنه تنفس الصعداء براحة ويسر، ثم صرخ في الظلام:

- وداعاً، ألكساندر سيرغييفيتش بوشكين.

أجابته الجبال مكررة صدى صوته مرات عدة، أما ميتكا كوروتييف، فقد قهقه ضاحكاً إلى جانب النار.

- امضِ... امضِ وإلا فستتذكر أيضاً «أرينا روديونوفنا»، قال ميتكا بتذمر وهو يرمي الأغصان في النار، ثم تمتم: وما الشيء الذي لا نحلم به.

* * *

شامة

ألمُ الرِجْلِ لا يحتمل، كان الألم بداية من النوع الساكن لكن من وقت إلى آخر أصبح كوخز الإبر من اتجاهات عدة، عند ذلك أصبح الإحساس وكأن ألف شيطان جلبوا منشاراً يدوياً قديماً وصدئاً، ثم انقسموا إلى جهتين وبدأوا بنشر رجله. تأوه أندري بصمت، وللتغلب على الألم أخرج من حقيبته العسكرية كيساً يحتوي على عدة الضماد الفردي، شق نايلون الكيس بأسنانه وأخرج المشد، وأخذ يربط منطقة الجرح بشكل بدائي ودون أدنى مهارة. انتفخت رجله وازرقت، أما الثقب الصغير فوق الركبة حيث دخلت الشظية فأصبح أسود اللون بسبب الدم المتخثر. كان الجرح مخفياً، شظية معدنية خرقت الجلد واستقرت في الأنسجة الرخوة للفخذ. ضمد أندري الجرح كما علَّموه، أعلى الجرح شد بإحكام أما أسفله فكان الضماد رخواً. مباشرة، تشرّب الشاش الطبي الأبيض الدم الأحمر القاني الطري. أخذ الألم في التناقص، أخرج أندري من جيبه مضغوطة دواء مضادة للالتهاب ووضعها تحت لسانه، ومن ثم

انقلب إلى الجهة الأخرى وسحب من حزامه مطرته، فتحها وشرب رشفة من الماء حتى يستطيع ابتلاع مضغوطة الدواء، فمرّت الرشفة على نحو مؤلم جداً وكأنه ابتلع أشواك الجِمال، لكن ما العمل؟ لأجل ذلك يمكن أن نتحمل الألم. أحَّ أندري على نحو خفيف، وجال ببصره على المبنى حيث كان يستلقي. كان المبنى أشبه بخان مهمل مبني من الطوب الطيني رمادي اللون، غالباً ما استخدموه سابقاً حظيرة للبهائم. العوارض الخشبية التي شكلت السقف في زمن ما تكسرت وأخذت في التساقط تحت تأثير الأمطار والرياح مشكلة فجوات في السقف المتداعي. من خلال هذه الفجوات بانت بقع من سماء زرقاء صافية لا نهاية لها. حواليه على الأرض تبعثرت أكوام صغيرة من الحشائش المجدولة، وفاحت منها رائحة صوف الغنم ورائحة الأعشاب الغضيضة.

استيقظ أندري بسبب الألم الشديد منذ فترة وجيزة. كم من الوقت مضى وهو مستلقٍ هنا، حتى كيف وصل إلى هنا، شخصياً هو لا يستطيع التذكر.

تلاطمت أمواج مختلفة في رأسه، وشرب أندري رشفة ماء من جديد. بدأت الذاكرة تعود إليه شيئاً فشيئاً، وتراقصت في مخيلته

مقتطفات من الأحداث التي حصلت اليوم معه بشكل متتابع. حاول أندري النهوض، لكن لم يستطع التوازن وانهار جسده ساقطاً على أرض الخان، ودار رأسه كما في الطفولة عندما لعب على الدولاب لدورات عدة متتالية.

اليوم صباحاً، قائد فصيلة الاستطلاع، حيث يخدم أندري، وبينما هو جالس قرب الموقد تناول جمرة، وأشعل سيجارة بطعم النعناع وبدأ بالحديث:

- هكذا يا تروفيموف «أحرقه وهج الجمرة فرماها إلى الموقد وأمسك شحمة أذنه» هذا هو الترتيب، أنا أقول: تتحركان معاً أنت ونايرولين بمحاذاة الوادي. راقبا ودققا أي شيء، وكل شيء، وكيف يمكن حدوث ذلك، مساءً أحد الرعيان أفاد أنه شاهد أناساً غرباء في الممر.

- هل من الممكن تصديق الراعي أيها الرفيق النقيب، سأل أندري وسحب سيجارة من العلبة، مسدها بلطف ثم أشعلها من سيجارة القائد.

- ومن يستطيع هنا فهمهم أو تصنيفهم، من منهم يمكن تصديقه، ومن لا يمكن؟ في جميع الأحوال، يجب تدقيق

المعلومات. لقد تم وضع خطة ميدانية للقوات، المغامرة ممنوعة، لذلك أنا قلت اذهبا أنتما الاثنان معاً وانظرا في الأمر. أنتما مقاتلان ذوا خبرة، وليس هذا هو عامكما الأول في الخدمة. ستتسللان بشكل هادئ ودون ضجيج، لا تتعجلا وحاولا مراقبة أكبر مساحة ممكنة. إذا كانوا أناساً عاديين يتجولون، فهم ليسوا هدفاً لنا، أما إذا كانت مجموعة إرهابية كبيرة فنحن لا نملك الحق بالسماح لها بالتسلل إلى مؤخرة قواتنا. واضح؟

- عند اكتشاف مجموعة كهذه، كيف سيكون التعامل معها؟

- التصرف حسب الموقف المتشكل، «يا قدميَّ أنقذاني»، هل هناك ما هو غير واضح؟

- حاضر رفيقي النقيب، ابتسم أندري وقال: فهمت، مراقبة كل شيء بهدوء والهرب بالسرعة القصوى!

- فقط في حالة اكتشاف مجموعات معادية ضخمة، أنا قلت، وابتسم.

كان خيرات نايرولين شاباً صموتاً، ويمكن القول إنه كئيب، لا يشرب الخمرة، ولم يتدخل بالأحاديث. كان خيرات يتقبل كل ما يحدث حواليه بلا انزعاج، حتى بعضه بلا اهتمام، الشيء الوحيد فقط الذي لم يستطع تعوده هو استشهاد رفاقه العسكريين. بعد أن وضعوا ذات مرة أحد الشهداء في الكيس البلاستيكي المخصص، خرج خيرات ولفترة طويلة جلس وحيداً يشد على أسنانه. وصل إلى فصيلة الاستطلاع منذ فترة قريبة بعد خروجه من المستشفى العسكري، قبل ذلك كان من قوام حرس الحدود، وخدم بالقرب من وادي كودورسكي، لكن بعد الحادثة المشؤومة، عندما ذبح الإرهابيون دورية منهم بأكملها، رفض خيرات رفضاً قاطعاً العودة إلى هناك. على الرغم من ذلك، طلب طواعية الخدمة في أصعب نقطة، إلى درجة جعلت قائد الفصيلة يقول له: أنت كالمستجير من الرمضاءِ بالنار.

مشى أندري في المقدمة عبر الممر الإجباري، وتبعه نايرولين على مسافة ليست كبيرة. كان اليوم مشمساً وساكناً تماماً، ومن حولهما غردت الطيور وتنشقا بشغف رائحة الزهور والأعشاب البرية.

- خيرات... هل سبق لك أن كنت في البراري؟ سأله أندري وبدأ الغناء بصوت خافت:

- في مكان ما بين سهوب البامباس تتراكض الثيران،

- وفوق أشجار الباوباب تغرب الشمس بلون الدم ...

- لا داعي للكلام عن الدم، اعترض نايرولين.

- مااااذا، تريدنا أن نتجول صامتين؟

- نعم، نتحرك بصمت. هكذا أفضل.

- كما تريد، تنهد أندري ممتعضاً، ثم سأله: كيف تعتقد أنت شخصياً، هل من الممكن أن تمر في حياتنا مصادفات عفوية أو أن جميع الأحداث تجري وفق قوانين معينة؟

لم يُجِبْ خيرات عن السؤال نهائياً، وعند ذلك زاد أندري من وتيرة الحركة.

بعد الخروج من الخانق، مشَّطَ المقاتلان الغابة. لم يكن أندري يرى خيرات، ولكن أحس بوجوده قريباً منه. فجأةً سمع أندري من جهة اليمين زقزقة طير تكررت ثلاث مرات. هذه كانت إشارة

متفق عليها مع رفيقه. جلس أندري مباشرة على الأرض وحدق بكل ما يحيط به، ثم أخذ يزحف باتجاه الصوت. استلقى خيرات في تجويف أرضي وبدأ مراقبة المشهد أمامه باهتمام. لَمَّا دنا أندري من خيرات، رَبّتَ عليه بهدوء من دون صوت، والتفت إليه خيرات، ودون أن يتكلم أشار برأسه إلى جهة اليسار. رفع أندري رأسه ونظر خلف حافة التجويف، شاهد على مسافة نحو أربعين متراً رتلاً من الناس المسلحين يسيرون بشكل موازٍ للانهدام الجبلي، وكانوا يحملون على ظهورهم أحمالاً ثقيلة الوزن، وبعضهم يحمل رشاشات على أكتافهم. كانوا يرتدون ثياباً مموهة من كل أنواع وأشكال التمويه، وعلى رؤوسهم ربطات خضراء اللون مكتوب عليها عبارة باللغة العربية. فجأة، توقف أول شخص في الرتل ورفع يده في الهواء، ومباشرة، بعده، توقف الرتل كلّه. دقق هذا الشخص النظر في كل ما يحيط به، ثم أخذ يشم الروائح حواليه وفجأة نظر مباشرة باتجاه مخبأ المقاتلين. خفض أندري رأسه بسرعة، واستلقى لدقيقتين، ومن ثم عاد للاستطلاع. كان الرتل قد استأنف المسير.

- كم عددهم؟ همس أندري سائلاً.

- مئة وخمسون من الحراب، أجابه نايرولين بصوت خافت.

- إذاً لم يكذب علينا الراعي!

- ماذا؟ استدار باتجاهه خيرات.

- مساء أمس اقتفت مجموعة استطلاع أثرهم هنا، وقد لاحظوا آثار خطواتهم، كل ما نفعله تُظهره الأقدام، قالها أندري ولطم التتري خيرات على جنبه.

حتى هذه اللحظة لم يستطع أندري أن يفهم، كيف يمكن أن يحدث هذا على الرغم من أنهما مقاتلان خبيران، وشهدا الكثير، كيف لم يحسنا تلافي سلك اللغم! كان اللغم في شكل قنبلة مموهة بشكل ممتاز، والسلك ممدوداً على الأرض مباشرة، ولم يقدرا على تمييزه بسبب الأعشاب الكثيفة. لكن انتهى كل شيء، لم يكونا محقين بارتكاب خطأ كهذا بحق نفسيهما، لا، لم يكونا محقين! انطلق الانفجار على نحو مفاجئ وغير متوقع، وسقط نايرولين على الأرض كالقتيل، أما أندري فأحس كأن دبوراً قد لسعه في رجله. هو أيضاً سقط أرضاً، لكن اصطدام رأسه جعله يسترجع وعيه. طبطب براحتيه على أذنيه، ولمّا عاد إليه سمعه بعد ثوانٍ عدة، حمل خيرات على كتفه منحنياً إلى الأرض، وركض في الغابة.

- هيا، ابقَ حياً، قال أندري وهزَّ رفيقه، ولا جواب سوى دم حار لزج سال على رقبته.

رفع أندري خيرات ووضعه بحذر شديد على الأعشاب. كان نيرولين ينظر مباشرة إلى السماء الزرقاء بقسمات وجه جدية وعينين مفتوحتين إلى أقصى حد. شظية اخترقت عنقه وخلفت وراءها جرحاً عميقاً ينبثق منه دم حار قرمزي.

على مسافة أمتار عدة فقط خلفه، من جهة اليمين، ومن جهة اليسار، سمع أندري حديثاً بلغة مبهمة بالنسبة إليه. كانوا يتعقبونه متتبعين آثاره على الأرض.

- اعذرني يا أخي، قالها أندري، ووضع جثمان خيرات في حفرة ورمى فوقه مجموعة من الأغصان بسرعة. استدار إلى الاتجاه المعاكس، وأطلق رشقة رصاص من بندقيته الآلية باتجاه الأصوات المسموعة.

تابع أندري إطلاق النار لفترة طويلة، حتى خُيّلَ إليه أنه استمر دهراً كاملاً، وكانوا يطلقون عليه النار، من أي جهة كان الإطلاق؟ لم يعرف، ولم يستطع التحديد، على ما يبدو كان الرمي

نحوه من كل الجهات دفعة واحدة. لمّا انتهت ذخيرة بندقيته كلّها أمسك رمانة يدوية بيده ونزع حلقة الأمان منها بأسنانه، وقذفها باتجاه الأصوات، ثم كرّر الأمر ثانية وثالثة. بعد ذلك، استل سكينه الحربي واستجمع آخر قواه وركض هارباً...

منذ زمن طويل مضى، بعد أن أنهى أندري عامه الدراسي الثاني في المعهد، التحق مع مجموعة من أصدقائه الطلبة بالعمل في ورش البناء. في العطلة الصيفية كانت الفرصة متاحة للعمل وكسب بعض المال، وكان العمل الموكل إلى الشبان هو بناء حظيرة للأبقار ضمن مزرعة تعاونية. أسكنوهم في فندق قديم مؤلف من طابق واحد، وكان مدير المزرعة قد أسكن هناك كل العمال المؤقتين.

كانوا يعملون من الصباح حتى وقت متأخر مساءً، ولم يكن في المبنى المسمى فندقاً أي حمامات لذلك اغتسل الطلاب بعد انتهاء العمل اليومي في الورشة، في بركة ماء طينية كبيرة أشبه ما تكون بمستنقع.

خلع أندري ملابسه على ضفة البركة، ووضعها جانباً ثم ولج في الماء. كان يستحم مستخدماً ليفة مفعمة برغوة الصابون، يحفّ

بها أجزاء جسده دون شفقة، والجسم الطري الذي لم يعتد بعد العمل العضلي الطويل المضني استسلم برضا.

- أيها الصديق، ألا أجد معك صابونة إضافيةً؟

استدار أندري، فشاهد على الضفة شاباً واقفاً يرتدي سترة وسروالاً قصيراً، وفي قدميه العاريتين ينتعل صندلاً.

- التقطها، قال أندري، ورمى إليه قطعة الصابون الزلقة.

التقطها الشاب بمهارة، ومن ثم وضعها على الأعشاب، ثم تعرى بسرعة، وببطء مشى وولج الماء.

- شكراً، قالها الشاب وهو ينظر إلى أندري بعينين سوداويين تشعَّان فرحاً، ثم أضاف: اسمي روما، وأنت ما اسمك؟

- أندري.

كان روما يتمتع بتكوين جسم مثالي: طويل، نحيف، شعر أسود فاحم، وجه متناسق القسمات، ملامح صقر، باستثناء شيء وحيد مختلف - بين العينين، على مستوى منسوب الأنف، هناك نقطة بنية اللون، إنها شامة كبيرة.

- هل أنت من أوسيتيا؟ سأل أندري.

- لا، أنا شيشاني، أجاب روما وقد بدأ بالاستحمام، أنا وأخي الأكبر نعمل في جمع التفاح في البساتين.

- أيدفعون لكم أجراً مجزياً؟

- نحن نعمل بالمحاصصة، ابتسم روما، وأضاف، نجمع خمسة صناديق من التفاح، والسادس نأخذه لنا.

- أما نحن فنعمل في بناء حظيرة للأبقار لصالح شركة الألبان، هل رأيتها؟

لم يطل الحديث، لكن بعد هذا التعارف أصبح روما ضيفاً خاصاً لدى مجموعة الطلاب. لعب وتنافس مع بقية الشبان بالنرد وكرة القدم. كان يضرب الكرة على نحو متقن وخاطف.

- لعبت في زمن ما في صفوف نادي تيريك لكرة القدم، ابتسم روما وهو يتحدث.

الشيء الوحيد الذي كان روما يخشاه هو أخوه الأكبر، إذ كان يطيعه أيضاً بلا تردد...

صدحت أصوات الموسيقا، في الفسحة القريبة من مبنى إدارة المزرعة التعاونية، ورقص الشبان مع الصبايا من سكان المزرعة

الدائمين، تشابكوا في حلقات الرقص بسعادة. كان يوم العطلة الأسبوعية ليس ككل الأيام، يمكن فيه الاسترخاء والرقص. جلس الطلاب في مجموعة مستقلة، وجلس روما إلى جانب أندري على مقعد خشبي.

- أي، أنت يا ذا الأنف الأسود... تعال إلى هنا، مع نظرة شريرة في عينيه، قال شاب يفوقهما عمراً، ويلبس بنطلوناً واسعاً أخضر اللون، مشيراً بإصبعه إلى روما.

لم يتذكر أندري أنه شاهد هذا الشاب من قبل.

- لا تختلطا به، همست إحدى فتيات المزرعة في أذن أندري، هذا غينيا كريفوف، وقد خرج من السجن منذ مدة قريبة، يا إلهي ماذا سيحدث الآن!

نهض روما مبتسماً، ونظر بشجاعة مباشرة في عيني الشاب الآخر. أيضاً، حاول أندري النهوض، لكن الشاب دفعه بكف يده فوقع على المقعد.

- سيكون لي معك حديث آخر لاحقاً، أما الآن، لنرَ ما هو لون مؤخرة فرخ الذئب هذا، وضحك غينيا بشكل وقح.

نهض أندري بحدة، ووقف جنباً إلى جنب صديقه بحيث تلامس كتفاهما. التفت روما إليه، وفهم كل شيء، فابتسم له، ثم حول نظره إلى غينيا وعبس.

- أما نحن فمع بعضنا، وحدق أندري بقسوة إلى العينين الدائريتين المخمورتين...

سمع أندري حديثاً بلغة فيها رطانة. مشطت العصابة الغابة كلها.

«لا بدّ أنهم سيدخلون هنا... لمعت الفكرة في رأسه، لا يمكن ألا يدخلوا. ثم ماذا... الموت، إذاً، لأجعلن موتي صاخباً».

مرّرَ أندري يده على الأرض متلمساً، فأحس بالبرودة، لكنه لم يجد السكين. بقلق بدأ يفتش في حقيبته، ومن ثم في جيوبه، لكن لم يجد شيئاً... اختفى السكين.

أحس أندري كأن شخصاً ما ينظر إليه، فرفع عينيه للأعلى، عند المدخل وقف شاب مكتمل وضخم في زيّ عسكري مموه، يحمل في يده بندقية آلية. أخذ يتفحص أندري باهتمام، من ثم استل بإحدى يديه من الغمد خنجراً معقوفاً ذا قبضة من

العظم، وأما البندقية فقد علّقها إلى كتفه. لحية حمراء شعثاء، وكتابة باللغة العربية مع سيفين متقاطعين أبيضي اللون، سطعا في الظلام.

سرت رعشة باردة في ظهر أندري، فخفض عينيه بأسى، ثم أغلقهما، ليس في مقدوره أن ينظر إلى اقتراب حتفه، الآن سيذبحونه ويجزون عنقه كالخروف.

اقترب المسلح منه وجلس القرفصاء، ومن ثم أمسك أندري من ذقنه، ورفع رأسه. فتح أندري جفنيه قليلاً، وشاهد كيف نظرت إليه باهتمام عينان بلون أسود، بينهما على مستوى منسوب الأنف توجد شامة كبيرة بنية اللون.

لثوانٍ عدة، تفحّص كل منهما الآخر بعناية.

- يا أبيض، هل هناك أحد؟ سألوا من الخارج، وقد سُمِعَ وقع خطواتهما المقتربة.

أفلت المسلح ذقن أندري ونهض بتروٍ، سقط رأس أندري إلى الخلف. كان أندري قد تحضر حتى للموت فلم يعد يشعر بالألم بل أحس أن الألم قد بدأ يتلاشى.

- يا أخانا! صاحوا ثانية من الخارج.

- لا يوجد أحد، أجاب الشيشاني... استدار، ثم مضى خارجاً ببطء من الخان.

- شكراً روما، همس أندري، ولكن الآخر كان قد اختفى للتو في ممر المدخل.

* * *

«كلونيدين»[1]

تعليمات الاستخدام

وقف إيغر أمام المرآة حائراً، أيحلق لحيته أم لا يحلق؟ وكأنه السؤال الذي حيّر هاملت (أكون أو لا أكون). كانت خدمته في وحدة مهام خاصة تابعة لقوى الأمن الداخلي، ولم يمضِ على عودته من مهمة عمل في الشيشان سوى أربعة أيام.

في ظروف الخدمة الصعبة، تساهل القادة مع مرؤوسيهم بما يخص حلاقة اللحية من عدمه. طبيعة عملهم المعقدة وكثرة المهام المسندة: تنفيذ عمليات خاصة، تمشيط مناطق معينة، عمليات تفتيش لبيوت محددة، نصب الكمائن، الاستطلاع الهندسي لكشف الألغام والعبوات الناسفة، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً حالات رفع

---

(١) دواء، اكتشف في ستينيات القرن العشرين واستخدم في علاج فرط ضغط الدم، ومهدئاً ومسكناً للشقيقة، وقد قلَّ استخدامه مؤخراً بسبب أعراضه الجانبية ولكونه مادة مخدرة.

الجاهزية الليلية، والمناوبة على حواجز الطرق وغيرها، تجعل من قضايا أخرى غير ذات أهمية.

لم تكن هناك القدرة دوماً سواء للحلاقة أم للاستحمام أو لغيرها من القضايا الشخصية الأخرى.

- أي خطيئة يتم إخفاؤها؟ إذا أخذنا في الحسبان أن نوعية الماء ليست جيدة بما يكفي، والطقس لا يمكن التكهن به دوماً، أضف إلى ذلك هطول المطر الناعم وهبوب نسمات باردة في الجبال، سيصبح الأمر جلياً تماماً. لماذا الضغط على الشبان مرة إضافية؟ هل الأمر أسهل بإطلاق اللحية والشوارب؟ إذاً فليكن كرمى لله. عملياً، في الطريق عند العودة إلى المنزل عمد الجميع إلى حلق اللحى والسوالف الطويلة والشوارب المزينة. الجميع ما عدا «إيغر»، ففي المرة السابقة أعجِبَت ابنته الصغيرة باللحية.

- أوه يا بابا، أنت تشبه بابا نويل، صرخت الصغيرة دَهِشَةً، من ثم جاء دور زوجته لتقول:

- حبيبي إيغر: منظرك باللحية رائع، لا تحلقها. غريب، شعر رأسك أسود أما شعر لحيتك فلونه خرنوبي!

لذلك، في المهمات التالية، حرص «إيغر» على تَطويل لحيته، وحافظ عليها باهتمام شديد، ولم يذهب تعبه سُدى، فقد نمت لحيته طويلة، كثيفة وجميلة.

أحرجه الموضوع بعض الشيء، إذ إنه لا يزال في ريعان شبابه، لكن مع اللحية يبدو أكبر سناً من عمره الحقيقي. طبعاً، ليس كعجوز شَابَ شعره، لكن مع ذلك، لمّا كان يتجول برفقة زوجته ويلتقي بأشخاص جدد، كان يسمع كلمات فيها غمز واستغراب عن هذا الزواج غير الموفق، وغير المفهوم. كانا يتلقيان ذلك بالابتسام والتجاهل، فقد كانت زوجته «لينا» أصغر منه عمراً بثلاث سنوات ونصف فقط.

لكن الحادثة التي وقعت اليوم أخرجته عن طوره تماماً، حدث ذلك عندما كان إيغر وزوجته لينا وابنتهما الصغيرة «كاتيوشا»، يتنزهون في الحديقة العامة، إذ ركضت الصغيرة وسبقتهما بعض الشيء، في حين كان هو وزوجته يتمشيان ويتحادثان بكل بساطة وأريحية عن كل الموضوعات التي حدثت في ثلاثة الأشهر الأخيرة، التي قضياها بعيدين أحدهما عن الآخر. من بين الشجيرات خرج طفل صغير عمره ربما أربع سنوات فقط، وعندما شاهد إيغر توقف

وكأنه مزروع في مكانه، بعد ذلك صرخ بصوت عالٍ، واستدار على كعبه وهرب راجعاً إلى أمه الفتية، واختبأ في حجرها.

- واضح يا حبيبي أنك أفزَعتَ ذاك الطفل. وانفجرت لينا ضاحكة، الآن انظر كيف يبدو الناس هنا.

- ماذا تعنين يا لينا، أمنظري مرعب جداً؟ تمتم إيغر مُحْبَطاً وحزيناً.

في هذه اللحظة، تدخلت كاتيوشا داعمة له:

- لا تخف أيها الصغير من أبي، فأبي ليس مفزعاً أبداً، إنه شرطي، صاحت بأعلى صوتها ليسمع الطفل المصدوم.

بعد سلسلة الذكريات هذه، عاد إيغر ليتساءل في نفسه: أأحلق لحيتي أم لا أحلقها؟

- عزيزي إيغر، يطلبونك عبر الهاتف، اقتربت لينا لتعطيه سماعة الهاتف مضيفة: على ما يبدو اتصال من الشغل.

أخذ إيغر سماعة الهاتف وهزَّ رأسه مبتسماً لزوجته عربون شكر، وتكلم تواً: ألو...

- أأنت الرائد «إيغر غورين»؟ سأل المتحدث على الطرف الآخر باحترام واضح، ثم عرّفَ عن نفسه: أنا المناوب في مبنى القيادة، اعذرني على الإزعاج.

- هل حدث خطب ما؟ امتصَّ إيغر ريقه، وتوالت في ذهنه الأفكار «فكما يبدو، أحد المقاتلين أساء التصرف في أمر ما، فماذا يمكن أن يكون؟ من وقت قريب فقط عاد الشبان من مهمتهم».

- لا... لا أيها الرفيق الرائد، كل ما في الأمر أن الرفيق العقيد «بابيف» رئيس المباحث الجنائية يطلب حضورك إليه في مكتبه.

عرف إيغر العقيد بابيف سابقاً، وتذكر وجهه على الفور، إذ إنه خدم حتى فترة قريبة في قوى الأمن الداخلي، وحسب ما يُحكى عنه، إنه ذو دمٍ بارد، وعديم الشفقة مع الأشخاص اللعوبين والمقصرين.

- العقيد ينتظرك اليوم في الساعة الخامسة مساءً تماماً، أرجو عدم التأخر. إلى اللقاء، ثم أغلق المناوب الخط.

- ماذا حدث؟ قالت لينا وهي تنظر بلهفة إلى إيغر.

- يستدعونني إلى مبنى القيادة.

- هذا أحد عناصرك قد أخطأ أو أُسيء فهمه، وأنت قائد الفصيلة، الآن تحلَّ بالقوة والهدوء!

- لا، لا يشبه ذلك. في البداية، أنا اعتقدت ذلك، لكن لماذا اتصل المناوب في مبنى قوى الأمن الداخلي؟ لوّح إيغر بيده وقال: اليوم مساءً في الخامسة تماماً، سأعرف الموضوع برمته من مصدره الرئيس.

في الساعة الرابعة وخمس وخمسين دقيقة مساءً، حضَرَ إيغر في المبنى، قرب مكتب رئيس المباحث الجنائية، وقف على السجاد المريح في الممر، لكنه كان يحس بقلق وعدم راحة.

«لماذا أنا أقلق قبل أن يحين الوقت»؟ دارت في ذهنه الأفكار. لكن لم يبقَ وقت للتفكير أو غيره، فقد ظهر من مكان ما ضابط برتبة ملازم في بزة عسكرية أنيقة خضراء اللون، وسأل:

- أأنت الرائد غورين؟ سأل الملازم بصوت خافت.

- نعم أنا هو.

- أرجو الدخول، الرفيق العقيد ينتظركم.

فُتِحَ باب ثقيل من خشب البلوط، فتجاوز إيغر العتبة ودخل مكتباً كبيراً. خلف طاولة طويلة، تحيط بها مجموعة من الكراسي، جلس العقيد باييف. فوق رأس العقيد، على الحائط الخشبي مجسّم لنسر ذي رأسين يمسك بمخالبه الكرة والصولجان[1].

- تفضل بالجلوس أيها الرائد، أشار العقيد بيده إلى المكان.

بثقة، أزاح إيغر الكرسي وجلس عليه، وفي رأسه خطرت فكرة «أنني استدعيتُ ليس لتأنيبي، فهذا مؤكد، نغمة صوته لا توحي بذلك».

ليس لدينا الوقت الكثير يا رفيق غورين، لذلك سندخل في لبّ الموضوع مباشرة، لقد رشَّحَتكم قيادةُ وحدات المهام الخاصة في قوى الأمن الداخلي، كونكم ضابطاً مؤهلاً وقادراً على تنفيذ المهام، والأهم أنكم ضابط ذكي، وتالياً، اتخَذَتْ قيادة الإدارة قراراً لإسناد تنفيذ مهمة خاصة إليكم أو ما يشبه ذلك، وهي التدخل الفوري في أعمال منظومة الجريمة المنظمة. لن أخفي عليك أن العمل سيكون صعباً، وربما خطراً.

---

(١) الشعار الرسمي لجمهورية روسيا الاتحادية.

- رفيقي العقيد، أنا الآن في شكل من أشكال إجازة إعادة التأهيل، أنا عائد تواً من مهمة. حاول إيغر الاعتراض بلطف.

- أعرف... أعرف، أشار العقيد باييف ثانية بيده قائلاً: سيُحَافَظ على كل أيام إجازتك، وستحصل عليها لاحقاً.

- وهل يمكن...

- لن ننتظر موافقتك.

- لكن كيف سـ...

- الأمر كذلك. أنهى العقيد النقاش متابعاً، أولاً: يجب مساعدة زملائك الموسكوفيين، ثانياً: يجب أن يكون الشخص غير معروف أو مكشوف، أي مواطناً من تلك المناطق نفسها ولا يشبه موظفي الشرطة، ثالثاً: جميع التعليمات عن تنفيذ العملية ستحصل عليها في مكان العمل، رابعاً: أتمنى لك النجاح. قالها العقيد وهو يشد على يد إيغر مودعاً.

- رفيقي العقيد، هناك استفسارات ...

- جميع الأسئلة والاستفسارات التنظيمية توجه إليه وأشار العقيد مرة أخرى بيده باتجاه مدخل المكتب، حيث وقف الملازم ذو البزة الخضراء.

- توقف أيها الرائد، صاح العقيد رئيس المباحث الجنائية ليسمع إيغر الذي كان قد خرج من المكتب في هذه اللحظة: هذا موضوع لا علاقة له بالعمل، لكن لحيتك لا تحلقها، أنت بهذه اللحية تشبه «سافّا موروزوف»[1]، وللمرة الأولى خلال الحديث كله ابتسم العقيد باييف.

- أيها الرفيق الرائد، قال الملازم ذو البزة الخضراء وهو ينتقي الأوراق بنشاط: هذه هي الوثائق الخاصة بمهمتكم، وهذه بطاقة سفر بالقطار حتى مدينة موسكو، والآن سنذهب معاً إلى القسم المالي للحصول على مستحقاتك المالية في أيام المهمة.

- سبعة أيام؟ تساءل إيغر بعد أن حدق إلى الوثيقة ذات الختم البنفسجي.

- نعم، سبعة أيام... الحد الأقصى، ابتسم الملازم.

- والحد الأدنى؟

- عند تحقيق نتيجة إيجابية.

---

(١) سافا موروزوف: **(١٨٦٢-١٩٠٥)** رجل أعمال وشخصية اجتماعية روسية معروفة.

صباح اليوم التالي، خرج إيغر من عربة القطار في محطة قطارات بافيليتسكي في العاصمة الروسية - موسكو.

وقف لوقت قصير على رصيف سكة القطار، راقب المكان حواليه. على الجهة المقابلة توقفت فتاة، حدقت إليه من أسفل قدميه إلى أعلى رأسه، وبثقة بدأت تقترب منه.

- اعذريني، لكن لا يلزمني حمَّال، وكذلك لا تلزمني سيارة أجرة، خاطبها إيغر بلهجة غير ودية.

- أما أنا فلست حمَّالاً، ولست سائق سيارة أجرة، أيها الرفيق الرائد. أنا هنا لأستقبلك أنت شخصياً، قالت له ذلك وهي تنظر إليه بجرأة واضحة.

رفع إيغر حاجبيه إلى الأعلى دهشة، لكن الفتاة، ودون أن تعير أي انتباه إلى تحفظه، كانت قد بدأت سيرها بثقة نحو المخرج، ولم يبقَ له إلا الإسراع واللحاق بها.

- أنا الملازم أول الشرطية «آنّا سنيغيريوفا»، عرّفَت الفتاة عن نفسها بعد أن وَضّبا الحقائب، وجلسا في صالون سيارة فخمة من نوع ليكزس، أخدم في المباحث الجنائية لمدينة موسكو.

- تشرفت بمعرفتك، وأنا الرائد الشرطي إيغر غورين.

- وكيف يمكن مناداتُكَ مع اسم الأب؟

- تستطيعين مناداتي ببساطة: إيغر.

- حسناً إيغر، أنا أيضاً تشرفت بمعرفتك. على امتداد فترة مهمتك هنا سأكون أنا مساعدتك، وسأكون موجودة بالقرب منك بشكل لصيق، ما عدا في الليل طبعاً، ابتسمت سنيغيريوفا.

- آنّا، أخبريني ولو حتى كلمتين عن ماهية العملية.

- فقط في كلمتين؟ إذا ممكن، وببراعة تجاوزت آنّا سيارة رينو.

- أنتَ ستؤدي دورَ رجل أعمال قادم إلى موسكو. ستعيش في فندق «أوكراينا». حُجِزَ جناح لك. في الفترة الأخيرة، هناك الكثير من عدم الوضوح، وأكثر من احتمال حول سرقة الممتلكات الشخصية. يوجد انطباع أن مجموعة فتيات «غاويات» يعملن على إغراء الشخصيات الغنية في المطاعم والمقاهي الفخمة، ويقبلن الدعوات إلى الأجنحة الخاصة...

- وصباحاً يستيقظ النزيل فلا يجد نقوده وممتلكاته الثمينة، قال إيغر مقاطعاً إياها.

- هذا هو الموضوع برمته، أحياناً قد لا يستيقظون، نظرت سنيغيريوفا إليه ساهمة وسألت: هل هذا واضح يا إيغر؟

- مفهوم، ما هو برنامج العمل على نحو عام؟

- البرنامج بسيط جداً: نهاراً تتسكع حيث تريد، ومن الممكن زيارة المعارض والمتاحف، وكذلك يمكنك أن تقضي وقتاً ممتعاً في الكازينو والبارات الفخمة غالية الثمن.

- الغالية؟

- مساءً، تحجز طاولة في مطعم الفندق في الطابق الثاني: تأكل، تشرب وتنتظر الزبون، بالمناسبة - في هذه اللحظة، ركنت سنيغيريوفا السيارة إلى يمين الطريق - أخرجت من جيب التابلو مغلفين وناولتهما إلى إيغر وقالت: في أحدهما ستجد روبلات روسية هي لمصروفك الشخصي، ولا داعي لاحقاً لتقديم كشف حساب عنها، يمكنك أن تنفقها ذات اليمين وذات الشمال، أما في المغلف الآخر فتوجد دولارات أمريكية،

وهذه يجب أن تكون حريصاً عليها، يمكنك إظهارها، بل من الضروري إظهارها، لكن لا يجوز التصرف بها إلا في حالات الضرورة القصوى.

- ما مصدر هذه الثروة؟ أمسك إيغر بكفه المغلفين المنتفخين والثقيلين.

- من ميزانية الوزارة، ابتسمت آنّا.

- مفهوم، دعينا نتحادث بلا رسميات يا آنّا، حتى هذا سيساعد في العمل.

- لا أمانع. سينتظرك اليوم بعد أربع ساعات، في مقهى «بيغونيا»، في شارع كوتوزوفسكي الشخص المشرف على العملية.

- كيف لي أن أعرفه؟

- هو شخصياً سيأتي إليك.

- ماذا الآن، أأذهب إلى جناحي في فندق «أوكرايينا»؟

- لا، ليس بعد. سنقوم الآن بجولة على المحال التجارية، ومن ثم إلى صالون حلاقة.

- إلى صالون الحلاقة - مفهوم، أما إلى المحال التجارية؟

- إيغر، هل رأيت سابقاً رجل أعمال يلبس الجينز ويحمل حقيبة رياضية؟ ابتسمت آنّا.

بعد ساعتين من الزمن، دخل إيغر عبر باب الفندق ساحباً خلفه حقيبة غالية الثمن مدولبة. كان يرتدي بزة إيطالية كلاسيكية باهظة الثمن، وكذلك ربطة عنق إيطالية غالية الثمن أيضاً، ويضع نظارة سوداء تضفي إلى وجهه سحراً وغموضاً.

عند اقترابه من مكتب الاستقبال، أخرج إيغر بطاقته الشخصية، ومن دون اكتراث قال: من المفترض أنه قد تم حجز جناح لي عندكم، ثم تثاءب على راحته.

- نعم... نعم، بالتأكيد يا إيغر ألكسييفيتش، قالت المديرة، وكانت سيدة متوسطة في العمر ولطيفة، هذه المفاتيح الخاصة بجناحكم، على الرحب والسعة. وابتسمت له ابتسامتها المعهودة في أثناء المناوبة، الطابق الثالث - الجناح ثلاثمئة وثلاثة.

- شكراً، قال إيغر، واتجه نحو المصعد.

في أثناء لقائه مع المشرف على العملية، شرح له الثاني دوره في العملية بأدق التفاصيل، وبعد ذلك عاد إيغر إلى جناحه الفخم في الفندق. عن مستوى فخامة الجناح فلا مبالغة في أي وصف لذلك، وقد لاحظه وتأكد منه إيغر منذ اللحظة الأولى، أما الآن فالفرصة متاحة لمشاهدته بأكمله وبتروٍ. كان الجناح مؤلفاً من ثلاث غرف، الأولى مخصصة كغرفة استقبال، والثانية كغرفة نوم، أما الثالثة فهي مخصصة للمرافق. في غرفة النوم سرير ضخم لافت للانتباه، بشراشف مطرزة، وحمّام واسع وفق الطراز الحديث، مع غرفة دوش زجاجية جانبية. أزاح إيغر الستائر عن النافذة وشهق من الدهشة، إذ انكشف أمامه عبر النافذة منظر غاية في الجمال، إطلالة رائعة على نهر موسكو، وعلى الضفة الأخرى للنهر كان البناء الجميل لمجلس الدوما الروسي يشعُّ بياضاً.

بعد أن أخذ إيغر حمامه، استرخى على أريكة مريحة، ثم فتح البار وانتقى زجاجة بيرة من نوع «بالتيكا»، وشغل التلفاز. فكر في نفسه: سأرتاح حتى المساء، وبعدها أنطلق إلى العمل.

مساءً، جلس إيغر إلى طاولة في المطعم، حجز الكثير من المقبلات والمشروبات، وتصنَّع شكلاً ضجراً لرجل أعمال ثري قَدِمَ إلى العاصمة في زيارة عمل.

بعد مرور خمس عشرة دقيقة، اقتربت من الطاولة فتاتان غاية في الجمال، توقفتا، وبدا عليهما مظهر الخجل والارتباك.

- ألا تقدم للسيدتين سيجارة أيها الشاب، قالت إحداهما بصوت ناعم خفيض كهديل الحمام.

- سيجارة فقط ؟ وأخرج إيغر من جيبه علبة سجائر «الجمل» وبلا اكتراث ألقاها على الطاولة.

- وهل هناك مقترحات أخرى؟ ضحكت الفتاة الثانية. استشفَّ إيغر من كلماتها لكنة أوكرانية.

- نعم توجد، وعمد إيغر إلى استطلاع صالة المطعم بأكملها، مع نظرة ملول. ثم أضاف: أرسلوني في عمل إلى هنا، لكني أحسُّ بالملل.

- ماذا؟ الملل دواؤه عندنا، وبثقة جلست الفتاتان إلى طاولته.

- أهلاً بكما، كل شخص غنيٌ على نحو ما، ووقف مؤدياً حركة جذابة يدعوهما بها لمشاركته.

في لحظة، تدفق في رأس إيغر شريط من اللوحات والصور من ألبوم العمل، التي أجبره المشرف على العملية على مشاهدتها وتذكرها. اعتقد أن هناك شبهاً في الشكل، وكذلك اللكنة الأوكرانية الخفيفة التي يصعب على الشخص العادي التقاطها.

- من أي المناطق كان قدومكم؟ غردت الفتاتان بالسؤال.

- من مدينة «ليبيتسك».

- نعم... نعم نعرفها، إنها هناك حيث يوجد عملاق الثروات المعدنية.

- وفيها نحن نعمل، أجاب إيغر بتواضع.

- بالمناسبة، ينادونني فالنتينا، أما صديقتي فاسمها سونيا.

- إيغر، قال مُعرّفاً عن نفسه، ثم نهض وانحنى لهما باحترام.

هل ستطلبون شيئاً ما؟ سألت النادلة بعد أن وقفت إلى جانب الطاولة.

رفع إيغر عينيه، والتقت نظراته بنظرة آنّا سنيغيريوفا.

- نعم، زجاجة «كونياك كامو» لي، وللسيدتين «مارتيني»؟ هل هو مناسب؟ سأل مستفهماً.

- لا... لا، للسيدتين شامبانيا، هل هذا ممكن؟ قالت إحدى الفتاتين بحيوية.

- طبعاً ممكن، نهض قليلاً بلباقة واضحة، على كلٍّ، لتتطلب الفتاتان بنفسيهما كل ما تريدانه، الخير موجود، وأظهر دستة من الدولارات، ولاحظ عند ذلك كيف لمعت عينا فالنتينا بطمع.

«تطلبان الشامبانيا قصداً، ففي المشروبات الغازية من السهل إضافة النيكلودين من دون أن يظهر له أي أثر، تماماً كما حذروني، لا شك في أنهما المقصودتان»، فكر إيغر في نفسه.

بعد ساعة من الأحاديث العامة والمسلية، ارتجفت إحدى الفتاتين على نحو عصبي.

- أيها الشاب: دعنا نضع النقط على الحروف.

- لا مشكلة عندي، بدأ إيغر يؤدي دور الشخص الثمل.

- كما تعلمون، أنا وصديقتي نعمل في مجال خدمات المرافقة.

- وهذا ما فهمته.

- هذا جيد أنكم من النوع المتفهم، وضحكت، ثم أضافت: وهذا هو الدواء الذي سنقدمه لكم للتخلص من الملل.

- وهذا سيكلفكم فقط مئة دولار في الساعة، تدخلت سونيا في الحديث.

- وإذا قلت إن كلتيكما تعجبني، قالها إيغر وابتسم ببلاهة.

- لا توجد أي مشكلة، أجابت الأولى، ومن جديد لمعت في عينيها نار الطمع.

- أنا أعتقد أن اختياري سيقع عليك أنت يا «فالا»، وتفحصها إيغر بنظره بشكل مباشر.

- ماذا، هذا غير ممتع، على الرغم من أن البداية كانت جيدة، قاطعتهم الثانية، وقد أُسقِطَ في يديها.

- لا يهم يا سونيا، التفتت إليها فالنتينا، وأضافت: أنت ستنتظرينني هنا. لكن أيها الشاب سيكون الدفع مقدماً.

وضع إيغر ورقة مئة دولار على الطاولة، ثم أخرج سبعة آلاف روبل ووضعها إلى جانبها من أجل العشاء.

- أنت ستحاسبين عن الطاولة، وأومأ برأسه إلى سونيا، والتقط من على الطاولة زجاجتي الكونياك والشامبانيا.

نهضت فالنتينا بعصبية، وحركت يديها ثم انطلقت إلى الأمام. كانت تحمل على كتفها حقيبة نسائية صغيرة.

- بالمناسبة يا إيغر، أين تعيش؟

- أنا هنا أعيش في أوكرايينا.

- كيف قلتم ذلك؟ في أوكرايينا؟ هنا الكثيرون يقولونها: في فندق أوكرايينا على نحو مقصود.

- لو أنني أعيش في دولة أوكرايينا لكان اسم أسرتي «كارلسون».

- ماذا... ماذا؟ لم تفهم فالنتينا.

- غير مهم، لا تفكري في الأمر.

- لن أستطيع أن أعدك بذلك، ابتسمت فالنتينا.

خرجت فالنتينا أولاً من المصعد، وذهبت مباشرة، ووقفت بالقرب من باب جناح إيغر.

«هكذا إذاً يا عزيزتي، لكنني لم أخبرك بعد في أي جناح أنا أعيش»، فكّر إيغر في نفسه.

لمّا دخلا الغرفة، وضع إيغر الزجاجتين على الطاولة بحيث صدر رنين اصطدامهما بها.

- أنا سأضع البودرة على أنفي، أما أنتِ فاحسبي نفسك سيدة هذا المكان، وجهزي الأمور كما يجب، قال إيغر بصوت ثمل، ودخل الحمام. هناك، أخرج من جيبه حبة دواء مضادة للسم وابتلعها، وشرب القليل من الماء من الصنبور مباشرة. نظر إلى نفسه في المرآة، ونكش شعره، وبلل لحيته قليلاً، وتقمص وجه شخص ثمل، ثم عاد إلى الغرفة. كان قلبه يخفق بجنون.

كانت فالنتينا تجلس إلى الطاولة وتعض شفتيها بعصبية. كان على الطاولة كأسان ممتلئتان بالشامبانيا.

- لاااااا، أنا أشرب الكونياك، هزّ إيغر رأسه معترضاً.

- أولاً، سنشرب الشامبانيا، ومن ثم سنشرب كل الباقي، قالت الغانية فجأة بصوت مخنوق.

«الكأس مملوءة وملغومة، فكَّر إيغر، فليكن ما يكون، في الغرفة كاميرتان تصوران ما يحصل».

دقَّ إيغر كأسه بقوة في كأس فالنتينا، وقد فعل ذلك عامداً، فانسكب نحو نصف الكأس على السجادة الفخمة.

«هكذا تقل كمية السموم الداخلة في جسمي». خطرت هذه الفكرة إلى ذهنه، وشرب ما بقي في الكأس كله دفعة واحدة.

بعد ثوانٍ عدة، أحسَّ إيغر كأنه تلقى ضربة قوية على فكه من ملاكم وزن ثقيل، لكنه لم يفقد الوعي تماماً. رفع إيغر عينين مشوشتين إلى فالنتينا، ورآها تنظر إليه باستغراب.

«حان الوقت لأفقد وعيي»، هذا ما جال في ذهنه، وأسقط نفسه على الأريكة. في اللحظة نفسها، أحسّ إيغر بيدين سارقتين تفتشانه من قدميه حتى رأسه، أخرجت محفظة النقود، وسحبت عن يده ساعته غالية الثمن. لم تكن الفتاة في عجلة من أمرها، إذ كانت تعتقد أن لديها بحراً من الوقت.

دخل عناصر الشرطة المدربون الجناح بلا أدنى صوت. رفع إيغر رأسه، وأسرعت إليه سنيغيريوفا، وفي الوقت نفسه، قبضَ اثنان من عناصر التحري على الغانية.

- كيف تشعر أنت ؟ هزته من كتفه، آنّا سنيغيريوفا.

أحس بالتحسن، كما يبدو بدأ يزول، أجاب إيغر، ولكنه كان لا يزال يحسّ بضجيج في رأسه.

- أيها الرفاق: أنتم شهود عيان على ما يحدث، سمع إيغر كما لو أنه في الضباب، ركزوا معي، يوجد في حقيبة الموقوفة عبوة زجاجية تحتوي حبوباً بيضاً. سنحجزها ونضمّنها في المحضر.

- ألا توجد تعليمات ؟ رفع إيغر رأساً ثقيلاً.

- ماذا؟ انحنت فوقه سنيغيريوفا مضطربةً.

- ألا توجد هناك تعليمات عن طريقة تناول النيكلودين؟ تابع كلامه وشاهد عبر الضباب نظرة فالنتينا التائهة، لكن الشريرة.

- ولحيتي يا آنّا، سأحلقها أنا ، بالتأكيد سأحلقها، وتوقف عن الكلام.

- ستحلقها... ستحلقها، ابتسمت سنيغيريوفا، وبنعومة مسَّدت له رأسه.

* * *

رحلة الطهي

تأخرت الحوامة عن الموعد المتوقع وكأن ذلك فعل مقصود بغاية الإزعاج. كان قائد الفصيلة «سمورودين» قد أرسل في طلبها منذ ساعة عن طريق محطة الاتصال اللاسلكي. انتظروا - هذا ما قالوه له.

إضافة إلى الرياح القوية وكل الأشياء المزعجة الأخرى، بدأ يهطل مطر خفيف، مزعج، لا يلزم لأحد هنا الآن، وبدأ الظلام يحل فوق الجبال.

«من الآن حتى صباح الغد، يمكن ألا تنتظر أي أحد»، بمرح قال سانيا موروزوف. لم تكن هناك همة لمعارضته عند أحد، عوضاً عن ذلك كانوا يعرفون كل شيء على نحو ممتاز، وأن سانيا مُحق في كلامه بنسبة مئتين في المئة. مضت ثماني ساعات والمفرزة المكونة من اثني عشر شخصاً يجلسون على التل المسمى «تل النسر»، الموجود على مسافة غير بعيدة عن مدينة «أوروس مارتان»، إحدى مدن جمهورية الشيشان.

منذ يومين مضيا، أُشرِكَت مفرزة مكافحة الشغب الشرطية «أمون»، التابعة لمدينة ليبيتسك، في تنفيذ عملية خاصة، جرت تحديداً في هذه المنطقة، منطقة «أوروس مارتان».

نُفّذَت العملية المقررة دون أي حوادث مؤسفة، وانتهت منذ زمن بعيد. غادرت القوات الرئيسة المنطقة في قافلة عسكرية، أما شبان ليبيتسك فهذه الليلة الثانية ينتظرون فيها الحوامة الموعودة. لا، لا أحد منهم لم يتأفف ولم يئن ضجراً. كان البرد حتى العظم، وغير مسموح إشعال النار. أما الرغبة في الأكل فحدّث ولا حرج. لذلك، في أثناء القيام بالحراسة القتالية جلس الشبان وظَهْرُ كل منهم إلى الآخر، ينتظرون الحوامة. واحد منهم كان يدخن بعصبية.

- هكذا يحصل دوماً، ظَهَرَ موروزوف من جديد وقال: أيها الرفيق النقيب لماذا مرة أخرى نقع في مشكلة؟ على الرغم من أن القادة يقولون لنا: إن كنتم ستذهبون في مهمة ليوم واحد، فخذوا معكم مواد غذائية ليومين.

- في المرة القادمة سنعين موروزوف مسؤولاً عن تأمين المواد الغذائية. قال سمورودين ووضع على الأرض كيساً ورقياً فيه خبز مجفف.

- وأنا لا أمانع، قال سانيا دون أن يلقي بالاً للابتسامات والضحكات، قضم بأسنانه الخبز المجفف الأسود القاسي كالحديد، وتابع حديثه مع تعالي صوت القضم الجماعي للخبز المجفف: في أوسيتيا[1] يوجد نوع من الفطائر المصنوعة من العجين الطازج ومحشوة بنكهات مختلفة: لحم الدجاج، لحم العجل، جبن مصنوع من حليب الماعز، وكذلك الحشائش الخضر، نعم أنا شاهدت ذلك - فطائر بالحشائش الخضر، تُخْبَز في تنور خارجي، عندما يخبزونها يتحول لونها إلى الأحمر. كذلك يُباعُ في أسواق أوسيتيا في بداية الربيع نبات يدعى «تشيريمشا» هو نوع من الثوم البري وينمو في الجبال. هذا الثوم البري لذيذ جداً ولا سيّما عندما يخللونه أو عندما يُحمَّر مع الزيت النباتي في مقلاة. عندما يجتمع الأوسيتيون (سكان أوسيتيا) حول الطاولة يرفعون أول نخب دوماً للقديس غيورغي[2]، الذي يعدّونه حامي جميع الأوسيتيين. أيضاً من المأكولات الشهيرة في المطبخ الأوسيتي ما يسمى «خاش».

---

(١) أوسيتيا - مقاطعة في روسيا الاتحادية، تقع في جبال القوقاز.

(٢) القديس غيورغي: القديس مار جورجيوس.

- وماذا يكون هذا؟ سأل أحد الشبان الجالسين في الجهة اليمنى.

- هل أكلت في يوم من الأيام «ستودين» أو الأكلة الروسية «خولوديتس»؟ إنه لحم مطبوخ مع الدهن في سائل من مادة هلامية ويترك حتى يبرد ويتجمد بعض الشيء فيتحول إلى مادة جيلاتينية لكنها رخوة. هذه الأكلة «خاش» تشبهها تماماً لكنها تُقدم ساخنة. جرت العادة هناك تناول هذا النوع من الحساء الدسم والساخن صباحاً. تنتهي من تناول هذه الوجبة «خاش» ومن جديد يدعونك إلى الطاولة: اشرب، كُلْ هيا، هيا أيها الغالي، لذلك يستمر العرس في أوسيتيا أسبوعاً كاملاً. والمذهل أن لا أحد يشتكي من ألم في الرأس نتيجة الإفراط في الشراب. أتصدقون أن سعر قنينة الفودكا في مدينة «فلادي قفقاز» فقط ثمانية روبلات[1]، هذه حقيقة، نعم هذا حقيقي... صدقوني، أنا لم أكذب بحرف واحد يا رفاق، فلا داعي للسخرية والاستهزاء. وإذ تشتري صندوقاً

---

(١) الروبل - العملة الرسمية في جمهورية روسيا الاتحادية.

كاملاً فسيجرون لك حسماً ويبيعون القنينة الواحدة بسبعة روبلات فقط.

أما أفضل أنواع الكونياك فتُصنَعُ طبعاً في «داغستان»[1]، لكن حصراً ماركة «كيزيليارسكي» أو «ديربينتسكي». هناك أنواع أخرى لكن لا يُقَارن أي نوع منها مع الكونياك الداغستاني. المطبخ الداغستاني يختلف أيضاً بعض الشيء عن غيره: إضافة إلى أطباق اللحم المشوي من لحم الخروف توجد كذلك مختلف أنواع أطباق اللحم بالعجين، الشيش برك، خينكال، أتعرفون ما هذا؟ إنه طبق بسيط سهل التحضير: يُضاف نوع من العجين إلى مرق اللحم الأحمر حتى ينضج، ثم يقدم في صحن واحد إلى جانب قطع اللحم الأحمر المسلوق. يمكن أن يقترحوا عليك هناك وجبات من السمك الطازج أو يقدمون السمك من دون أي إضافات. يقدمون هناك شرائح فاخرة من سمك الحفش، السمك الأحمر أو من سمك الكارب الفضي.

---

(١) داغستان - جمهورية من قوام الاتحاد الروسي.

في سوق مدينة «خاسافيورت»[1] يبيعون شرائح السمك والكافيار الطازج مباشرة وبالكمية المطلوبة، صفوف كثيرة وطويلة جداً من طاولات بيع هذه المنتجات. ذات مرة ذهبت إلى هناك لشراء الكافيار الأسود، هناك عادة متبعة لدى البائعات، يدعونك إلى تذوق المنتج قبل أن تشتري، وعند كل بائعة توجد ملاعق صغيرة تُستَخدم للتذوق حصراً، تذوقت الكثير، ثم اشتريت نصف كيلوغرام من الكافيار الأسود، ولكن منذ ذلك اليوم أقلعت عن أكل الكافيار الأسود. هناك يبيعون الكونياك المُصَنّع في المنازل أيضاً، وكذلك يفعلون في أثناء البيع، يقدمون لك جرعة لتتذوقه أولاً.

عن أنواع النبيذ، حتى لا أريد أن أتحدث، في كل مقهى محترم لا بدَّ أن يقدموا لك كأساً كبيرة من النبيذ البارد محلي الصنع ضيافة، تنظر إلى الكأس وتشاهد نثرات من شحم العنب تسبح في النبيذ، تشرب نبيذاً كهذا فتحس كأنك شربت أكسير الحياة.

أما إذا أردتم في مدينة «مازدوك» فأنا أستطيع أن أخبركم عن كل كافيتيريا ومطعم هناك وماذا يقدمون في كل منها، مثلاً: الأماكن التي في شارع «كيروفا»، وهو الشارع الرئيس، في كافيتيريا

---

(١) إحدى مدن جمهورية داغستان الروسية.

«آبريكوس» يمكنك أن تجرب طبق «لانغيت مع الفطر»، في كافيتيريا «نيتسي» يقدمون سلطة روسية لذيذة جداً وطبقاً من اللحم وفق الطريقة الفرنسية، والحق أقول إنهم ماهرون في الطهي هناك، وفي مقهى «إيربيس» لديهم بيرة فاخرة تُسمَّى داريا. أما إذا كنت تريد تناول لحم الخنزير المشوي فسوف تجده فقط في مطعم «تيريك» الواقع على أوتستراد «اليوبيل»، هناك يعمل طاهٍ أرميني يدعى «سوريك». تستطيع عنده اختيار قطعة اللحم التي تريد فيعمل على تحضيرها وشوائها أمامك. أحياناً، يسميه البعض مطعم العيدان، وذلك لأن جميع الكراسي والطاولات فيه مصنوعة من عيدان النباتات الناعمة. يقدمون هناك أنواعاً بسيطة من السلطات مصنوعة من الملفوف والشوندر الأحمر، أما لحم الشواء فيكون مسبقاً منقوعاً في خل التفاح وحينما يُقدَّم، توضع معه شرائح البصل اليابس الطازجة. الفودكا هناك سلسة وفاخرة تدعى «ساليوت الذهبي»، ليست غالية الثمن، لكنها ذات نوعية ممتازة. عند رغبتك في تذوق شواء لحم سمك الحفش فأنت مرحب بك في مطعم «كازبيك»، هناك ستجد أنواعاً فاخرة من السلطات وأنواعاً غالية الثمن من الفودكا. يعمل هناك طباخ ماهر من جورجيا، الجميع يدعونه «كاتسو». لكن يا شباب، المكان المعترف به بأنه الأفضل والأنسب

للجميع طبعاً هو «دجيمارا»، فيه كل شيء على مستوى عالمي. كما توجد أماكن لا ماهية لها، مثل «السبعات الثلاث»، الذي لا يرتقي إلى أي مستوى، والمزية الوحيدة فيه هي إمكان لعب النرد، حيث لا تستطيع ذلك في الأماكن السابقة كلها. بالعودة إلى كافيتيريا «دجيمارا»، هناك إضافة إلى سلطة الخيار والبندورة يقدمون لك طبقاً يدعى «تبلة أوسيتيا». وإذا سألتموني ما هذا فسوف أجيبكم كالتالي: هذه وجبة مطبوخة في جرة من الفخار، مكونة من لحم العجل والبطاطا المقطعة إلى مكعبات صغيرة، والمقلية بعض الشيء، ثم توضع في جرة الفخار وتضاف إليها مرقة الفلفل الحار حتى تغمرها وتطبخ معاً. إضافة لكل ما ذكرنا يمكن كذلك حجز طبق من اللحم بالعجين، ومعه يحضرون نوعاً من الصلصة اللذيذة تدعى «تساختون»، يصنعونها من اللبن والثوم، ويُحْضِرون لك كل ذلك إلى حيث تجلس في ركن مستقل ومنفصل عن الآخرين، مزود بجرس لاستدعاء طاقم الخدمة عند الضرورة.

اسمعوني جيداً: أنا لا أنصحكم بشراء اللحم المشوي من المحال على قارعة الطريق، من الممكن أن يكون لحم كلب أو غيره، هل تذكر يا «ميشا» عندما خدعونا وأعطونا لحم جمل مشوياً، لا يمكن مضغه في أي حال، كأنك تأكل العلك.

- دعونا نقطع رجل «سوسانين»، قال موروزف

- لا... لا داعي يا شباب، فقد تذكرت الطريق، أجاب الثاني.

- يكفي يا موروزف، جاء صوت من الزاوية البعيدة، دعونا نتحدث عن النساء فهذا أفضل.

- عن النساء؟ بكل سعادة، تابع موروزوف: تعرفت في زمن مضى إلى فتاة طيبة، في الحقيقة كان جمال وجهها عادياً، ولا شيء مميز فيه، لكنها كانت طاهية ماهرة، وأعدت دوماً أطباقاً شهية جداً. سأحدثكم الآن عن جمهورية الشيشان، ولا سيّما أننا موجودون فيها الآن. هناك في كل مقهى، وكل كافيتيريا على جانب الطريق، سيقدمون لك الأطباق الشعبية الشهية مثل: «لاغمان» وهو طبق مصنوع من المعكرونة مع لحم الضأن والمرق الأحمر، «سامسا» وهي فطائر محشوة باللحم أو بالجبن تُخبَز على التنور، «بيلياش» فطائر مصنوعة من رقائق عجين محشوة بدهن خروف، وكذلك يقدمون اللحم بالعجين ولحم الدجاج المسلوق ولحم العجل المسلوق. كما

يمكنهم اقتراح الشواء من لحم الضأن أو حساء الخضراوات مع لحم الضأن. ذات مرة، توقفت لأتناول شيئاً من الطعام، وكنت في عجلة من أمري، فاقترحوا عليّ وجبة من اللحم المشوي، ووعدوا بأن تكون جاهزة في غضون خمس دقائق، طبعاً أنا لم أقتنع بذلك، فهذا غير ممكن، لكن حب الاستطلاع دفعني إلى التجريب. وضع صاحب المقهى اللحم المشوي الجاهز على سيخ الشواء، ورشَّ عليها الكحول ثم أشعله، وبعد دقيقتين فقط انتهى الكحول وانطفأت النار، وقدّم لي طبقاً من اللحم المشوي الساخن. غير بعيد عن العاصمة «غروزني»، توجد مقاطعة «ناوورسكي»، هناك تشاهد على جانب الطريق عبوات متوسطة الحجم مملوءة بالعنب الأخضر أو أزرق اللون الناضج، شديد الحلاوة، ويبيعون العبوة بأكملها بعشرين روبلاً فقط. أما في المناطق القريبة من مدينة «كيزليار»، فعندما تتسوق من عندهم فإنهم يضعون في صندوق السيارة بطيختين، سواء صفراء أو حمراء، أو سواها، هدية مجاناً. يمكن القول والتعميم إنه لا توجد منطقة في جبال القوقاز لا يجيد أهلها

الطهي وتحضير الطعام على نحو جيد، بل هناك في كل المناطق، على اختلافها، مطبخ غني، متنوع وشهي.

مرّ الوقت دون إحساس بحرقة الانتظار، وشرد كل فرد من أفراد المجموعة في دنياه الخاصة وذكرياته المختلفة ومخططاته المستقبلية، لكن هدير الحوامة أخرجهم جميعاً مما كانوا فيه، وهبوا مسرعين للصعود فيها والعودة إلى مقرهم.

حاول سانيا موروزوف أن يتمتم ببعض الكلمات داخل الحوامة، وقبل أن يستفيض ويسترسل، اقترح أحد المقاتلين أن يرموه من الحوامة ويتخلصوا منه.

- يا رفاق، ماذا دهاكم؟ يحدث هذا معي من شدة التوتر والقلق، أعصابي لا تحتمل، قال سانيا بانزعاج، وصمت هذه المرة لفترة طويلة.

* * *

مبدؤنا

شخص ما ربّتَ بحذر على كتف «ألكسي». فتح «ألكسي» عينيه وشاهد وجهاً ملتحياً لفحته الشمس ينظر إليه وعلى محياه ارتسمت ابتسامة لطيفة.

- حاج محمد، قال «ليوشا»[1] وابتسم له مرحباً أيضاً.

- هل عرفتني؟

- وكيف لي ألا أعرفك أيها الصديق! ولا سيّما أنك حملتني على كتفيك ما يربو على الساعتين.

- هذا أمر بسيط، لا تهتم لذلك. المهم أخبرني كيف حال ظهرك؟

- ما زال يتدلل عليّ، يؤلمني، قال ألكسي وغيَّرَ وضعية استلقائه بصعوبة واضحة، سُمِعَ صوت طقطقة شيء ما في ظهره،

---

(١) ليوشا أو ليوخا اسم التصغير من ألكسي.

وانتابه ألم شديد إلى درجة أنه أراد أن يسترخي من جديد ويغط في نوم عميق.

تأوه «ليوشا» على الرغم منه، واسترق النظر حواليه مستطلعاً. كانت جميع الأسرة في جناح المستشفى حيث يرقد مشغولة، وكان عدد الجرحى كبيراً إلى درجة أن أُخرِجَ بعض الأَسِرّة ووضعت في الممر.

- اسمعني جيداً، همس حاج محمد في أذن ألكسي همساً: شاهد الناس بالقرب من بلدة خاسافيورت عصابات كبيرة من الإرهابيين. حالياً، القوات الفيدرالية الروسية ومعها قوات دفاعنا المحلية توغلت في عمق أراضي جمهورية الشيشان، لذلك يخطط الإرهابيون لتنفيذ أعمال تخريبية هنا في هذه المناطق. وليس مستبعداً أن يستهدفوا المستشفى أو ربما يستولوا عليه. تحسباً، أحضرت لك ما ينفعك، ويمكن أن تدافع به عن نفسك إذا حصل ما لا تحمد عقباه.

أنهى كلامه ووضع تحت وسادة ألكسي صرة ملفوفة. مدّ ألكسي يده تحت الوسادة وجسّ بأصابعه محتويات الصرة، فأحس بثقل سلاح معدني بارد، إنه مسدس. تلمس ألكسي المسدس بإحساس

الخبير وأدرك أنه ليس من النوع الكبير، ومع ذلك انتابه شعور من الاطمئنان والثقة والحماية. كانت سبطانة المسدس الصقيلة ملفوفة بالقماش للحفاظ عليها.

- شكراً يا صديقي!

- لا شكر على واجب، ابتسم الداغستاني، واستدار سائلاً إياه: هل أنت وحيد هنا؟ هل رفاقك الآخرون معك هنا؟

- نُقِلَ «كوليوخا» مباشرة على متن حوامة إلى العاصمة «محج قلعة»[1]، لأن إصابته كانت الأكثر خطورة، أما الملازم أول «ميخييف» فهو موجود هنا، في جناح الضباط. هل ما زلت تتذكر «ميخييف»؟

- طبعاً أتذكره، عبس حاج محمد وأضاف: أتذكر هذا البطل. وهل من الممكن عدم تذكر قائد الفصيلة «ميخييف». لَمَّا خرج مقاتلونا من القرية التي تحترق، كان «ميخييف» الأكثر نشاطاً وحركة، يدق صافرة الإنذار، ويعاين الجرحى، ويقيّم وضعهم، كأنه اكتشف من الذين ممكن تركهم ومن الذين ما زالوا يلزموننا.

---

(١) عاصمة جمهورية داغستان.

انطبعت صورة الملازم أول ميخييف في ذاكرة «ليوشا»، منذ أول لقاء لهما في المعسكر بالقرب من مدينة «نوفوتشيركاسيك»[1]، حيث تم تحضيرهم وتدريبهم هناك لتنفيذ العملية القتالية.

منذ البداية، في أثناء تنفيذ النشاطات المختلفة في الدورة المتبعة، وفي أثناء الرمايات التكتيكية، والدروس التكتيكية، وعروض النظام المنضم، تمايز الملازم أول ميخييف عن بقية الضباط بطريقة تعاطيه مع المرؤوسين، فقد تعامل معهم بشيء من التعنت والفوقية، كما يمكن الإشارة إلى اهتمامه المفرط وعنايته الفائقة بشكله الخارجي وهيئته الشخصية. يجدر القول بأنه كان طويلاً، نحيفاً ورشيقاً، وكانت غرة شعره أطول من أن يخفيها تحت البيريه العسكرية فكانت تتدلى لتصل إلى حاجبيه الكثيفين الأسودين.

- الروس لا يتخلون عن رفاقهم في الحرب، هذا هو مبدؤنا الوطني الروسي. تذكروا هذا إلى الأبد، قال الضابط «ميخييف» على نحو واضح، حازم وجازم. كان يحفز مقاتليه وينمي فيهم هذا الشعور، وقد كرر هذا القول مراراً إلى درجة أن «ليوشا» يتذكره دائماً.

---

(١) مدينة روسية تقع في الجنوب في محيط مدينة راستوف الروسية.

هنا، في المستشفى العسكري، يستلقي الملازم الأول ميخييف»، وهنا قد وجد سيدة قلبه. اعتنت الممرضات بالضابط المُصاب، ولم يغب عن أنظارهن لحظة واحدة، ومن جهته أحبَّ أن يروي لهن كيف أنقذ مقاتليه، وكيف قام بالتغطية النارية ليتسنّى لهم الانسحاب من الكمين المحكم الذي حشرهم فيه الإرهابيون. كان ميخييف في قرارة نفسه قد اختار إحداهن، وهي طبيبة أعصاب تدعى «جانّا». كانت بيضاء البشرة تضع مكياجاً واضحاً، لكنها لم تكن تتميز بذكاء زائد عن الأخريات، ولكن كما يقول المثل الروسي «كل خنزير دوماً يجد مزبلته المناسبة».

- اسمع يا حاج محمد، هل تتذكر عندما التقينا أنا وأنت بعد أن كنا قد أفلتنا من الحصار، أنا طلبت إليك أن نلتقط أحد المقاتلين الجرحى - رفع ليوشا نظره إلى محدثه، وحاول أن ينظر في عينيه مباشرة، لكن حاج محمد أشاح بنظره وتحاشى أن تلتقي نظراتهما - نحن لم نستطع أخذه معنا، أما هو فقد بكى وتوسل إلينا ألّا نتركه هناك. أنت لم تجلبه يا حاج محمد؟ ماذا، لماذا أنت صامت هكذا؟ قل شيئاً، ماذا؟

- أنا أتذكر يا ليوشا، أتذكر كل شيء. لمَّا عدنا ودخلنا القرية كان عدد كبير من الجنود قد تُركوا على جانب الطريق، لكن لم يكن بينهم أحياء نهائياً. قسم منهم كان قد جُزَّ عنقه، كانوا قد نالوا منهم. ماذا أقول، وداعاً ليوشا، ليكن الله معك، أتمنى لك التوفيق. قال الداغستاني كلمته الأخيرة واستدار خارجاً مباشرة من جناح المستشفى.

مرة ثانية جال ليوشا بنظره حواليه: على السرير المجاور يستلقي عسكري مجند. كما يبدو، كانت إصاباته خطرة، لأنه كان ملفوفاً في الضماد والشاش الطبي من قدمه حتى رأسه، كما كان يستلقي صامتاً طوال الوقت إلى درجة أنه لم يتأوه أو يئن. من الجهة الأخرى، يوجد سريران متجاوران، يستلقي عليهما شخصان داغستانيان من قوات الحماية الذاتية الداغستانية، كانا يتحادثان من وقت إلى آخر بلغتهما المحلية، وأحياناً ينظران من طرفي عينيهما باتجاه اليسار، هناك حيث جلس شخص جريح من الإرهابيين يتألم باستمرار، وكان طوال الوقت إما يئنّ أو يهتاج، وأحياناً تفلت من لسانه جمل طويلة، غريبة وغير مفهومة باللغة العربية. من الممكن أنه كان يتلو بعض الآيات والسور من القرآن الكريم، بينه وبين نفسه، التي كما يبدو قريباً ستلزمه كثيراً.

- كيف حالك يا «كارافاييف»؟ سأل قائد الفصيلة «ميخييف» بينما كان يهمّ بالجلوس على سرير ليوشا، أمازلت صامداً؟ إذاً ابقَ صامداً، اصمد... ممتاز! هل سمعت بآخر خبر؟ لقد رشحوني لأتقلد وسام الشجاعة. لذلك، عليك أن تحافظ على حياتك وتضعها تحت تصرفي لأنني أنا من أنقذ لك حياتك.

- أيها الرفيق الملازم الأول، ألا تتذكرون ذاك الجندي؟

- أي جندي منهم؟ وبرقت عينا ميخييف، لقد فَهِمَ عن أي جندي كان السؤال، لكنه أردف: في حياتي مرّ الكثير من الجنود المختلفين، ولا أقدر أن أتذكرهم جميعهم. أما أنا، أيها الأخ كارافاييف، فَقبلَ كل شيء عليّ أن أحافظ على المقاتلين التابعين لي، وهذا ما فعلته. يا إلهي «جانّا» مقبلة، عليَّ أن أذهب. حسناً إذاً، إلى اللقاء، وعليك أن تتعافى بسرعة أيها الجندي. أما عن تلك الحادثة فإياك أن تنبس ببنت شفة لأي كان، وإلا فأنا شخص يجيد الانتقام. بعد ذلك، خرج قائد الفصيلة من الجناح.

«الروس في الحرب لا يتركون رفاقهم، هذا هو مبدؤنا. تذكروا ذلك كما تتذكرون صلاتكم»، تذكر ليوشا هذه الكلمات، وتدفق

الدم عنيفاً إلى صدغيه، وأصبح قلبه لا ينبض بل يهدر تحت الغطاء الصوفي، وأزّت الكلمات في رأسه كقرع الأجراس.

تراجعت جماعة المقاتلين من القرية المشتعلة زحفاً. أحس ليوشا كأن قصديراً مصهوراً قد سُكِبَ على ظهره. هناك احترق كل شيء، وأحس بألم شديد، على رغم من ذلك كان يزحف وحده. بالقرب منه، كانوا يسحبون «كوليوخا زفيريف» وهو يئنّ كمن فقد وعيه. أما في الأمام فكانت تتراءى هيئة قائد الفصيلة، كان يزحف وجسده ملتصق بالأرض، أحياناً كان ينظر إلى الخلف ووجهه يتلوى من الانزعاج، ويعطي أوامره بالزحف بسرعة أكبر.

- بسببكم سنستشهد جميعاً، صاح قائد الفصيلة بهم، ثم انفجر يصرخ.

كان «سانيا» و «يوركا» يسحبان «نيكولاي» ولم يعيرا أي انتباه لصراخ «ميخييف». من الممكن أنهما ضربا بعرض الحائط كل ما يقول، ومن الممكن أنهما كانا مصابين أو مرضوضين إلى درجة لا يسمعانه فيها، أو أنهما في خضم قعقعة وصفير الطلقات لم يميزا ما كان يحدث، لكن ما الفرق أياً كان السبب.

بقي «سانيا» و«يوركا» هناك، على أطراف القرية، فقد حذفتهما من الحياة رشقة رصاص من رشاش غادر. قائد الفصيلة ميخييف، اختفى من المشهد في الحال، أما ليوشا فقد كان يزحف باستخدام يده اليمنى، ويده اليسرى تمسك بـ «زفيرييف» وتشده إليه. كان الأخير منهكاً تماماً كـ لعبة بالية ولم يقاوم، لكنه لم يكن ليساعد أيضاً.

وهكذا، هناك في مكان ما، تحت عربة قتالية مدرعة محترقة، التقوا أحد الجنود، كانت قدماه محطمتين. في البداية، حاول الجندي الاختفاء تحت جسم تلك العربة المحترقة، لكن عندما أدرك أن القادمين أصدقاء وليسوا أعداء، أجهش إلى البكاء والتوسل ألا يتركوه. لبضع ثوانٍ فقط غاب ليوشا عن الوعي، ولمَّا صحا من إغمائه شاهد أمامه مباشرة وجه ميخييف المكفهر من الغضب والخوف.

- أيها الرفيق الملازم الأول، خذوا أنتم هذا المقاتل، وأنا سأسحب كاليوخا.

- أي كاليوخا؟ أنا أسألك من هذا؟ ارمه هنا، دعه وشأنه، في جميع الأحوال لن يستطيع التحمل، ولن يعيش، أما بالنسبة

إلى هذا، وأشار بيده إلى الجندي محطم القدمين، فأنا لا أنوي أن ألمسه أبداً. ألا تعلم أن الإرهابيين يفخخون جثامين الشهداء وأجساد الجرحى بالمتفجرات؟ أنا هنا الأقدم، وأنا أطلب إليك أن تنفذ تعليماتي! هل هذا مفهوم؟ ماذا، هل تريد أن تُقَدَّم إلى محكمة عسكرية؟

- اسمع أيها الملازم الأول، قال ليوشا وهو ينظر بتحدٍ إلى عيني قائد الفصيلة: اسحب أنت كاليوخا، وأنا سأزحف خلفك، واسأل الله ألا تسول لك نفسك وتتركه، وإلا فسأكومك كالقملة، ورفع بندقيته الكلاشينكوف ليراها الملازم الأول.

بصق ميخييف بغضب، وطار الشرار من عينيه، لكن مع ذلك سحب وراءه كاليوخا زفيرييف، ماسكاً إياه من ياقة بزّته.

حاول ليوشا جرّ الجندي الآخر وراءه، لكن خارت قواه وخذلته قدراته.

- ما اسمك يا رفيق؟ سأل ليوشا من خلال شفتين شبه متيبستين.

- «سيريوغا»، وفي التو سُمِعَ نشيجه.

- اسمعني يا سيريوغا، ليس لدي القدرة ولا القوة لآخذك معي. خذ مطرة مائي واختبئ جيداً تحت العربة المدرعة. أنا أعدك إذا ما وصلنا بالسلامة إلى قواتنا فسأرسل في اللحظة مجموعة لإنقاذك وإحضارك إلينا، هل هذا مفهوم؟ أنا أسألك هل هذا مفهوم يا سيريوغا؟

هزّ سيريوغا رأسه موافقاً بإذعان، وهدأت حالته شيئاً فشيئاً. زحف ليوشا متتبعاً آثار ميخييف، كان مرهقاً خائر القوى، وكان اجتياز كل سنتيمتر يحتاج إلى مجهودٍ مضنٍ. كان يحسّ كأن جبلاً ملقىً على ظهره، فقد قوته وجفّ حلقه، وعندما حاذى قائد الفصيلة قرر أن يأخذ قسطاً من الراحة. كان الضابط منبطحاً إلى الأرض ويشرب من مطرته العسكرية، فرفع عينيه باتجاه ليوشا وقال همساً: يا للأسف، انتهى كل شيء، إنه الموت الزؤام.

أدار ليوشا رأسه إلى الجهة الأخرى، وشاهد على الفور مجموعة من الرجال بلحى طويلة، يحملون بنادق آلية ويحدقون إليهم.

- من أنتم؟ هل أنتم من القوات الفيدرالية الروسية؟ سأل أحد مقاتلي المجموعة، ودون انتظار الجواب أضاف: نحن من قوات الحماية الذاتية الداغستانية!

بعد ذلك، كان كل شيء ضبابياً. كل ما يتذكره ليوشا أن رجلاً بلحية سوداء يدعى حاج محمد حمله على كتفه. أما، كم استمر ذلك، وكيف تمّ الأمر، فليس لديه أدنى فكرة. عاد إليه وعيه فقط في المستشفى العسكري، حيث كان يستلقي على بطنه. تلمس كامل جسمه، واكتشف أن جسده قد لُفّ بالضماد والأربطة الطبية بالكامل بعد دهنه بنوع من المراهم الطبية. في صباح اليوم التالي أحضرت ممرضة إليه طعام الفطور ووعاءً يحتوي أنواعاً مختلفة من حبوب الأدوية. الممرضة نفسها أخبرته أن الجندي الآخر الذي كان معه قد نُقِلَ بالحوامة إلى العاصمة «محج قلعة»، أما الضابط فإنه يستلقي في الجناح المجاور، وهو فعلياً غير مصاب بجروح أو حروق أو رضوض، وغالباً سيعود قريباً إلى وحدته العسكرية.

لسبب ما، اعتقدت الممرضة أن هذه الأخبار سَتُسِرُّ ليوشا، لكن في الواقع أن الحمل الثقيل الذي كان يضغط على صدر ليوشا ازداد ثقلاً كيلوغرامات عدة بعد سماعه ذلك، فقد أصبح يخشى منه على الآخرين وليس يخشى عليه.

حطّ الليل رحاله دونما استئذان، ليل مثقلٌ بالهموم والأفكار المتصارعة والصور المتلاحقة التي لم تترك مجالاً لـ ليوشا أن يغفو.

منذ اللحظة التي استلقى فيها وأغمض عينيه بدأ يسمع بكاء سيريوغا واستجداءه بألا يتركوه. من ثم، تتالت الصور في مخيلته كيف هدأ سيريوغا بعد النظر إليه مباشرة في عينيه، وكيف زحف متوغلاً ومختفياً تحت عربة بي تي إر المدرعة وهو يضم إلى صدره مطرة ماء ليوشا.

- إنما، أنا كذبت عليه، لقد تركته إلى مصيره، بدأت الأفكار تضج في رأس ليوشا.

في هذه اللحظة لمست كتفه يدٌ بهدوء شديد. أدار ليوشا رأسه ولمح من خلال الظلام المطبق على جناح المستشفى ممرضة تلبس رداءً أبيض اللون، تقف فوقه مباشرة. لم يكن وجهها مرئياً له، إنما من هيئتها أدرك أنه لم يرَ هذه الممرضة سابقاً قط.

- انهض، لنذهب، قالت الممرضة بهدوء شديد.

حاول ليوشا أن ينهض لكنه لم يقدر. عاد الألم إليه بشدة.

- أنا لا أستطيع، تمتم ليوشا.

- حسناً، نَمْ إذاً، قالت الممرضة ثم أردفت: أنا أخطأت. استدارت باتجاه السرير المجاور ولمست كتف الجندي المضمد من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه.

غرق ليوشا في نوم عميق، ولم يستيقظ إلا بعد ساعات عدة، لكن الجميع من حوله ما زالوا نياماً، إذ لم يَحِنْ وقت الاستيقاظ بعد. لكن ما العمل.

شيء ما أيقظه، وطار النوم من عينيه تماماً!

رفع ليوشا رأسه وشاهد اثنين من مستخدمي المستشفى يحاولان نقل وإخراج جاره المُضَمّد من الجناح دون إحداث ضجة، لكن، يا للأسف، كان رأسه مُغطى بشرشف أبيض.

- أخذته تلك البائسة، دهمته هذه الفكرة. لكن ميخييف ما زال سيخدم وقتاً طويلاً، إنه في بداية خدمته العسكرية، كم من الشبان سيضيعون بسبب أخطائه، وسينقلونهم، كما حدث اليوم، وقد غطيت رؤوسهم بالكامل. «الروس لا يرمون رفاقهم»! هكذا إذاً يا سيادة الملازم الأول؟ قهقه ليوشا ضاحكاً.

- أنا سأنقذكم يا رفاق، إنه لن يرمي أياً منكم بعد الآن، لن يستشهد أي شاب آخر بسبب أخطائه. الروس لا يتركون رفاقهم، ولن يتركوهم أبداً.

انتشل ليوشا المسدس من تحت الوسادة، وأنزل لوحة الأمان. نهض بصعوبة، وقطب حاجبيه من شدة الألم، فأخفى المسدس تحت رداء المستشفى وتسلل إلى الجناح المجاور وفي عقله فكرة واحدة: «لأجل أن يستمر مبدؤنا بالعمل لاحقاً، كي يعمل كالساعة، وكي لا يخطر في بال أحد أن يشك في هذا الأمر».

* * *

رحلة عادية

منذ الصباح الباكر أيقظ المناوب اليومي النقيبَ فاسيلي وأبلغه على نحو مقتضب: «أيها الرفيق النقيب: يطلب القائد حضورك الآن». نهض النقيب واغتسل بسرعة ومضى إلى مقر القيادة.

- كيف كان نومك؟ سأله القائد، ودون أن ينتظر الإجابة استأنف كلامه: بدأت المواد الغذائية تنضب، وكذلك البنزين، كميته أصبحت قليلة، جهز نفسك للسفر إلى بلدة «خانكالا»[1].

- فهمت، زفر فاسيلي وسأل: حسب الخطة القديمة؟

- نعم صحيح، سنعمل كالعادة. سيذهب معك من المقاتلين: اثنان رماة بندقية، رامي رشاش ورامي قاذف صاروخي آر بي جي. انتقِ هؤلاء المقاتلين بنفسك، أنهى القائد كلامه وأطفأ سيجارته.

---

(١) بلدة في جمهورية الشيشان الروسية، تقع إلى الشرق من العاصمة غروزني.

كان سائق السيارة العسكرية الأورال «فولوديا زبروييف» قد جهز سيارته، وأحمى المحرك، ثم دار حول السيارة متفحصاً بدقة كل عجلة من عجلاتها. دخل النقيب فاسيلي غرفة المناوبة، حيث وجد المساعد «فاليرا ريابوخين» منحنياً فوق محطة الاتصال اللاسلكية.

- كيف الوضع؟ هل السفر مسموح؟ سأل النقيب باسماً.

- منذ الصباح حتى الآن حدث تفجيران: أحدهما في قطاع مسؤوليتنا، في منطقة «بروميسلي»، أما الثاني فقد وقع في المركز، في شارع النصر، أجاب «فاليرا» رافعاً باتجاهه عينين محمرتين مسهدتين بعد ليلة لم يعرف فيها طعم النوم، ثم أضاف: دورية الهندسة التابعة لنا انتهت من تفتيش الطريق لمسافة ثلاثة كيلومترات، بدءاً من حاجزنا حتى المنعطف، أما بقية الطريق فأنتم وحظكم أيها النقيب.

- ثلاثة كيلومترات نظيفة وآمنة؟ مقبول.

ثلاثة أشهر ومفرزة قوات مكافحة الشغب «أمون» التابعة لشرطة مدينة «ليبيتسك» تنفذ مهام قتالية وخدمية في مدينة غروزني عاصمة

جمهورية الشيشان. تتوضع نقطة الانتشار المؤقتة في حارة «ستاروبرو ميسلوفسكي»، في الطرف الأقصى للمدينة.

تصادف أن الخريف كان دافئاً ومشمساً. كان أخطر الأمور في ذاك الزمن هو التنقل عبر الطرقات، فكل يوم تقع تفجيرات، تفجيرات وتفجيرات. توضع العبوات الناسفة ليلاً وأحياناً توضع في وضح النهار. على الرغم من تسيير دوريات سطع هندسي يومياً على الطرق، إلا أن الإرهابيين كانوا قد تمرسوا في أعمال التفجير والتفخيخ إلى درجة تفوق الخيال، وتمكنوا من استنباط الكثير من الحيل والخدع لتلغيم مقاطع من الطريق في الدقائق الحاسمة مباشرة بعد مرور دورية السطع الهندسي. زرع الإرهابيون ما يُسمى الألغام المفاجئة والأفخاخ والأشراك الخداعية، كما وضعوا الشحنات المتفجرة والعبوات الناسفة التي تعمل بالتحكم اللاسلكي عن بُعد أو وفق مبدأ الضغط عليها. كانوا يضعون وسط الغبار أو في التراب على الطريق مفتاحاً عادياً لجرس كهربائي مما يستخدم على أبواب المنازل، وعند عبور سيارة ما على الطريق ومرورها فوق المفتاح ينضغط زر مفتاح الجرس وتكتمل الدارة الكهربائية، فتزغرد أصوات الانفجارات.

تمتاز سيارة «أورال» بمقدمة متطاولة لأكثر من متر أمام مقصورة السائق، وبفضل ذلك أُنقِذَت حياة الكثيرين عند التعرض لانفجار لغم، إلى درجة أن أصبح الجنود يدعون تلك المقدمة «متر الحياة»، أما في سيارة «كماز» فلا توجد تلك المزية، وعند انفجار لغم ما تحتها تكون إصابة طاقمها مباشرة وخطرة، هذا إذا كان مبدأ الانفجار يعتمد على الضغط. أما العبوات الناسفة التي تُفَجَّر لاسلكياً عن بعد، فالوصفة الوحيدة المفيدة هي السرعة. لقد اكتسب الإرهابيون خبرة هائلة في هذا المجال، إذ كانوا يراقبون الطريق عن بعد بعناية شديدة، واعتمدوا على أعمدة الكهرباء الموجودة على جانب الطريق لتحديد لحظة ضغط زر التفجير بحيث يتزامن مرور السيارة مع لحظة الانفجار، ولا سيّما أن المسافة بين أعمدة الكهرباء معلومة، والزمن اللازم للسيارة لتجاوز هذه المسافة عند القيادة بالسرعة الوسطى (٨٠ كم في الساعة) معروف أيضاً. وهكذا، لم يتبقَ للجنود من مخرج للنجاة إلا قيادة السيارة بسرعة أكبر من السرعة المعتادة.

بالنسبة إلى السائق «فولوديا زبروييف»، كانت الأمور واضحة ولا حاجة لإجراء هذه الحسابات، فقد اعتاد الأمر وحفظه، وهذا

ليس عامه الأول للخدمة في هذه المنطقة. لذلك، لم يكن النقيب «فاسيلي» يخاف السفر معه، وللحق، لم يكن النقيب يخاف أي شيء، فقد اعتاد كل هذا أيضاً.

- أيها الرفيق... أيها الرفيق النقيب، ركض جندي في ريعان الشباب، يدعى «نيكولاي لايوشكين»، باتجاه «فاسيلي» ملهوفاً ينادي، ولّما التفت إليه النقيب، قال: خذوني معكم في هذه المهمة، فقد انقضى الشهر الثالث من خدمتي هنا ولم أغادر هذا الحاجز، ولا أعرف أي شيء خارج هذه النقطة.

- لا تتعجل الأمر، سيحين الوقت لذلك.

- قد سافر البعض معكم مرتين، وربما أكثر، أما أنا فلم تأخذوني مرة واحدة بعد.

- هكذا إذاً، القضية غيرة من الآخرين؟

- لا... لا، أيها الرفيق النقيب، خذوني معكم ولن أخذلكم.

- توقف عن الإلحاح، قالها النقيب ونظر إلى المقاتل بحزم، إذا كنت لن تخذلني فأمامك عشر دقائق فقط لتكون جاهزاً للتحرك، أخبر قائد الفصيلة بذهابك ولا تنسَ إحضار الدرع.

- مفهوم، سأجهز في لمح البصر، شكراً أيها الرفيق النقيب، قال «لايوشكين» بصوت عالٍ وقد ابتعد راكضاً.

- علامَ تشكرني؟ تساءل النقيب في نفسه.

كانت السيارة تقف في ملجأ دون مستوى سطح الأرض، اصطفَّ المغادرون في رتل عسكري. تقدم النقيب شخصياً من كل منهم مدققاً جهوزيته للمغادرة. كان جميع المقاتلين في لباس الميدان الكامل، وعلى صدورهم الدروع الواقية، وعلى رؤوسهم خوذ ثقيلة مصنوعة من الفولاذ المصفح.

أربعة مقاتلين إضافة إلى السائق اصطفوا في أماكنهم، كان الشبان في غاية الجدية والتركيز، فقط «لايوشكين» ابتسم ببلاهة، لكن هذا لا يهم، سيعتاد الأمر ولا سيّما أن هذه مهمته القتالية الأولى.

- انتباه، استعداد، أعطى النقيب أوامره: يمين ره.

تقدم القائد إلى المجموعة، رفع يده لهم وسأل:

- هل الجميع جاهزون؟

- نعم، الجميع جاهزون تماماً أيها الرفيق الرائد، قدم النقيب تقريره متابعاً: الأقدم في صندوق السيارة هو المساعد

«سيريوغين»، يوجد جهاز اتصال واحد في صندوق السيارة وجهاز آخر محمول معي، إضافة إلى محطة لاسلكية ثابتة في السيارة. الوقت المخطط للرحلة كالتالي: ساعة للذهاب، ثلاث ساعات للعمل هناك، ساعة للعودة.

- لا تضمر شراً، لا سمح الله. اذهبوا في رعاية الله يا فاسيلي.

- سنحاول ذلك، وعند المصافحة شدَّ النقيب على يد الرائد «أندري».

قبل بوابات الخروج، أوقف السائق السيارة. هذا طقس متأصل لا يمكن تجاهله. خلع فاسيلي البيريه العسكرية عن رأسه، وأزاح بندقيته الآلية جانباً، ووضع يديه على صدره وبدأ هامساً في قراءة أدعية تساعده وتحميه. هذه الصلوات مكتوبة على قصاصة صغيرة من الورق، أعطته إياها جدته لتحميه في الطريق.

- اقرأها في اللحظة الصعبة يا بني، قالت له جدته، الله رحيم لن يتخلى عنك.

في البداية، كان فاسيلي يقرأ الصلوات مباشرة عن الورقة، لكن لأنه كان يسافر على نحو متكرر على الطرق، ويتنقل في كل

مكان، كانت تصادفه دوماً تلك اللحظة الصعبة، وعلى نحو متكرر يتلو تلك الصلوات، فأصبح يحفظها عن ظهر قلب.

- آمين، ختم فاسيلي صلواته ورسم إشارة الصليب.

- أيمكن التحرك أيها القائد؟ سأل «فولوديا».

لمّا أشار النقيب برأسه بالموافقة، رسم السائق أيضاً إشارة الصليب ووضع رجله على دواسة البنزين، وضغط تدريجياً.

تحركت السيارة، وخلّفت نقطة التفتيش خلفها، وعلى جانب الطريق وقف صديق «فاسيلي»، قائد الفصيلة، ملوحاً لهم بيده ببشاشة، وتمنى لهم رحلة موفقة، وأضاف: نحن ننتظر عودتكم بالسلامة، وسنبقى في حالة جهوزية حتى عودتكم الميمونة. رفع فاسيلي يده ملوحاً أيضاً له بالإيجاب.

كان أمامهم قطع طريق غير سهل أبداً، يمر عبر المدينة كلها من طرف إلى آخر، ومن ثم إلى بلدة «خانكالا». كان تركيز القدرة العسكرية والقيادات الأعلى على جميع المستويات في الجمهورية المتنفضة. امتد الطريق السريع ستاروبروميسلوفسكي تقريباً حتى مركز المدينة. كانت السيارة «أورال» تنهب الطريق بشكل جنوني،

وتخفف السرعة فقط عند نقاط التفتيش، التي صادفوها كل خمسة كيلومترات تقريباً. كانت نقاط التفتيش مختلفة، منها ما هو مصنوع من جذوع الأشجار ومحاط بأكياس مملوءة بالرمل، ومنها ما كان مؤلفاً من كتل مختلفة عشوائية. لكن فوق سطح كل منها كان يرفرف العلم الروسي ثلاثي الألوان.

امتدت صلبان، ثم صلبان على طول الطريق السريع. منذ أشهر عدة مضت وقعت هنا معارك ضارية. كانت البيوت في المحيط نصف مدمرة، في بعض منها فجوات كبيرة ناتجة عن القذائف. كان تعداد البشر على الطرقات قليلاً نسبياً، لذلك أصبح الجو مشحوناً أكثر بالخوف، كأنك تسير في منطقة مرصودة من قوى غير مرئية.

بعد مرور زمن معين، توقفت سيارة الأورال عند مفترق طرق، إلى اليسار، باتجاه حي لينين. شخر محرك السيارة وأطلقت في الهواء غمامة دخان ناتجة عن الوقود المحترق، وتحركت باتجاه اليمين.

مركز المدينة - ساحة الحمقى الثلاثة. في كل الأحوال، قبل الحرب كانت تسمى هذه الساحة بـ «ساحة الصداقة»، وفيها تمثال مؤلف من قاعدة واحدة وعليها ثلاثة رجال متعانقين:

شيشاني وإنغوشيت[1] وروسي، وهم بعناقهم يجسدون هذه الصداقة. لكن، في فترة نشوب الأعمال القتالية، أو ربما قبل ذلك، فُجّرَ التمثال، وبقيت القاعدة الغرانيتية يتيمة وسط الساحة تغسلها الأمطار وتصفعها الرياح مُضَيّعَة الرموز الطيبة.

بعد عبور الساحة انعطفت السيارة إلى اليسار، وتوجهت إلى أتستراد النصر. لكن أي نصر؟ النصر على ألمانيا الفاشية؟ أم يمكن النصر على روسيا القوية والكبيرة؟ من يمكنه التمييز الآن؟ انتصارات مختلفة هنا.

هنا، خفف فولوديا السرعة، غير بعيد عن هنا يوجد السوق الرئيس. عدد الناس في الشوارع هنا أكثر منه على الأطراف. عاد السكان المحليون إلى المدينة جزئياً، ويمكن مشاهدة سيارات خفيفة مركونة هنا أو هناك. وقفت في الساحة عربة قتالية مدرعة، ووقف عليها شخص عسكري يوزّعُ منشورات لجميع الراغبين من السكان، وفي هذا الوقت، صدح صوت من مكبر، صوت

---

(١) من سكان مقاطعة إنغوشيتيا، التي تتبع الاتحاد الفيدرالي الروسي وتجاور جمهورية الشيشان.

ينادي: «مواطني جمهورية الشيشان الحرة، جمهوريتكم تُبعث من جديد إلى الحياة السلمية،»...

اقترب الناس وأخذوا المنشورات. عددهم ليس كبيراً بعد ولكن اقتربوا.

- دعاية! قال «زبروييف»، وأشار برأسه في اتجاه العربة.

- دعايتنا ليست أسوأ من دعايتهم، أجاب النقيب فاسيلي، وأردف: ركز انتباهك على الطريق.

قريباً سيكون منعطف باتجاه المفرزة المحمولة، هذه تسمية اصطلاحية، أما في الواقع فهنا توجد رئاسة أركان جميع الوحدات الشرطية الموجودة في هذه الجمهورية. حتى يُسمح بدخول «خانكالا» يجب المرور بالمفرزة المحمولة واستصدار تعليمات عسكرية بذلك. ما هذه التعليمات؟ هي عبارة عن ورقة كأنها ورقة بسيطة، لكن في الحقيقة ليست كذلك بل هي وثيقة مكتوب عليها بالقلم الأسود أن مجموعة عناصر من قوام إحدى المفارز عددهم /يُحدد العدد/، يُسمَح لهم على متن السيارة نوع /يُحدد النوع /ذات الرقم /يُحدد الرقم/ بدخول «خانكالا». وفي النهاية، إمضاء قائد المفرزة المحمولة والخاتم.

من دون هذه الورقة لا يمكن دخول «خانكالا» أو حتى التجول بين البلدات والقرى. على أول حاجز تفتيش يمكن أن يطلبوا إبراز تلك التعليمات العسكرية، وعند عدم توافرها فلن يسمحوا باستكمال المسير. لكن، في الواقع، لا يحدث ذلك، بل يجري بآلية مختلفة: تقترب من حاجز التفتيش، تضغط على بوق السيارة، وترفع يدك ملوحاً للرفاق على الحاجز في أثناء العبور، وفي المقابل يرفعون هم أيديهم بالتحية، وهذا كل شيء. لا عجب في ذلك، ألا تستطيع تَعَرُّفَ رفاقك؟! الموضوع في غاية السهولة: إذا شاهدت سيارة شاحنة قديمة في حال يرثى لها، محملة بأكياس مملوءة بالرمل، أو بالدروع الواقية، ويجلس فيها شبان معفرون، ذوو لحى طويلة، يلبس كلٌّ على هواه، إذاً هم زملاء لك. لكن، تحديداً إلى «خانكالا»، لن تستطيع الدخول بهذه الطريقة، فهناك سيطلبون منك بالتأكيد إبراز ورقة التعليمات العسكرية.

تتمركز المفرزة المحمولة في فندق كان سابقاً تابعاً للسيرك الحكومي. في الواقع، في أماكن متفرقة ما زالت هناك ألواح إسمنتية ملتصقة بالجدران منقوش عليها رؤوس أسود ووجوه نمور وسواها، كما يمكن رؤية، في مكان ليس ببعيد، قبة السيرك المنهارة. حول هذا المقر تنتشر الأسلاك الشائكة وحقول الألغام.

عبرت السيارة إلى حرم المفرزة المحمولة، وكان في صندوقها برميل أزرق اللون مخصص لمياه الشرب، كُتِبَ عليه بأحرف كبيرة جلية كلمة «ماء».

- يقولون إن سيرك الشيشان كان أحد أفضل نوادي السيرك في زمن الاتحاد السوفييتي، قال «زوبروييف» ملتفتاً إلى «فاسيلي» وقد أوقف السيارة.

- يقولون لا تطفئ محرك السيارة، وسأعود بسرعة، فقط أضع الخاتم وأوقع، فقد جهزت التعليمات سلفاً، أجاب النقيب.

- مفهوم، هزّ «فولوديا» رأسه.

خرج «فاسيلي» من المبنى بعد خمس عشرة دقيقة، ألقى نظرة على صندوق السيارة وسأل:

- أما زلتم أحياء؟

صاح «لايوشكين» بجواب ما مع ابتسامة، لكن لم يكن مسموعاً كما يجب. أبدى «فاسيلي» إشارة تدل على أنه لم يسمع، فتدخل «سيريوغين» رافعاً إبهام يده إلى الأعلى دلالة على أن الأمور بخير، فهزّ «فاسيلي» رأسه وصعد في المقصورة الأمامية للسيارة.

سافروا من مقر المفرزة المحمولة، وعبروا جسر «سونجينسكي» إلى شارع لينين. على جانبي الطريق انتصبت الأبنية متعددة الطبقات، التي ما زالت سليمة بفعل معجزة. أحياناً، أُطلِقَت النيران من هذه الأبنية على السيارات العسكرية المارة بالقرب منها، لكن في هذا اليوم، عبرت السيارة دون مفاجئات.

بعد المرور تحت جسر «رومانوفسكي» توجّهت السيارة إلى ساحة «دقيقة». أطلقوا اسم «رومانوفسكي» على هذا الجسر بعد أن فجَّرَ الإرهابيون سيارة الجنرال «رومانوف» تحديداً تحت هذا الجسر.

قبل ذلك الوقت، لمّا شاهد النقيب فاسيلي ساحة «دقيقة»، أول مرة، كان يتخيلها ساحة ضخمة، ولا سيّما أنه جرت عليها أعنف المعارك ضراوة، كما تشربت جوانبها بكمية هائلة من الدماء المسفوكة. في زمن الحملة العسكرية الثانية على الشيشان انتقلت السيطرة عليها عشرات المرات من طرف إلى طرف آخر، وعُدَّت موقعاً إستراتيجياً. لكنها بدت في الحقيقة صغيرة وداكنة إلى درجة أنهم لو لا قالوا للنقيب مسبقاً هذه هي تحديداً ساحة «دقيقة» لكان تجاوزها دون أن يلتفت إليها أو يوليها أي

اهتمام. فقط أكوام أحجار البناء في محيطها فقط تُذكّر بالهجمات المتكررة والمعارك الشرسة.

تدحرجت سيارة الأورال على طريق ترابية مغبرة محاذية للحي ذي الملكيات الخاصة، المكون من بيوت أرضية مفردة محاطة بمساحات من الأراضي الزراعية، حتى التقت بالشارع الرئيس، مُخلّفة ورائها لوحة معدنية كبيرة مكتوب عليها «غروزني»، مع إشارة سهم يدل على الاتجاه. إلى جانبها وقفت سيارة شاحنة عسكرية وجماعة من المقاتلين يلتقطون الصور معها وقد رفعوا أسلحتهم إلى الأعلى.

على مسافة كيلومترات عدة في الجهة اليسرى من الطريق، بانت دبابة طراز ت -٦٢ موجودة في حفرة دون مستوى الأرض، وكان برج الدبابة والمدفع فقط يعلوان الساتر الترابي. بالقرب منها، توجد غرفة صغيرة مصنوعة من الأخشاب وعارضة معدنية تقطع الطريق.

وقف جندي في خوذة معدنية خضراء اللون، عندما شاهد المعلومة «المنطقة ٤٨»، صرخ:

- «سالو»، وصل إلى هنا زملاء لك، تعال واستقبلهم.

ركض الرقيب المجند «سالو سافيتشينكو» مبتسماً باتجاه سيارة الأورال.

- احترامي أيها الرفيق النقيب، منذ زمن لم نعد نراكم، وأردف: معكم حق، فحالة الطرق لم تكن آمنة.

- أكثرت الكلام أيها العسكري، أجاب «فاسيلي» مبتسماً. خذ هذه، وأعطى للرقيب طرداً من المياه المعدنية ماركة «ليبيتسكايا» وكروزاً من السجائر كهدية من مدينة «ليبيتسك».

- شكراً جزيلاً رفيقي النقيب. أعطني من فضلك ورقة التعليمات العسكرية وأنا سأسجلها حسب الأصول. لمّا أخذ الورقة، طار بسرعة إلى الغرفة الخشبية.

- كيف الخدمة؟ سأل النقيب الرقيب «سافتشينكو» عندما عاد الأخير.

- اعتيادية.

- وهل يراسلونك من البيت؟

- نعم يكتبون. أيها الرفيق النقيب، أمازلتم تتذكرون اتفاقنا؟ بعد أن أنهي خدمتي الإلزامية فسأتقدم مباشرة للخدمة في فصائل «أمون»!

- لا لم أنسَ. أنا سأدعم طلبك وأساعدك. افتح البوابة.

- هيا يا رفيق، صرخ «زبروييف» للجندي عبر النافذة.

لوح «سافتشينكو» بيده وابتسم لهم وهو يرفع العارضة المعدنية ويفسح في الطريق. على مسافة نحو كيلومترين عن محور التحرك، في منطقة ليس فيها أي طريق، انكشفت للعيون بلدة مؤلفة من بيوت مفردة، مبنية من الخشب، وكان الجميع يدعونها البيوت الفنلندية. على مسافة قريبة وقفت مقطورات عدة على أحد خطوط سكة القطار، عاش فيها ممثلو وكالات الصحافة. في الجهة المقابلة يوجد مدخل مجمع المساكن العسكرية.

خلع «فاسيلي» جعبته ودخل لتوقيع أوامر تسلّم المواد الغذائية والوقود. كان مستودع المواد الغذائية بعيداً وموزعاً بما يكفي. مرة أخرى، هناك صفٌ من العربات على نسق، في إحدى العربات

المُدَفأة تسلّم الحبوب، وفي أخرى تسلّم معلبات اللحمة والحليب المكثف، وهكذا حتى النهاية. بالنسبة إلى «فاسيلي» التنقل بين هذه العربات عمل مزعج ومقيت، والمُسَلِّمُون يحاولون جاهدين خداعك، إما يضعون لك كيساً من الملح بدلاً من كيس سكر، وإما يعطونك البيض فاسداً. لذلك، يجب أن تُبقي عينيك متفتحتين، وذهنك يقظاً.

لمّا أصبحت السيارة محملة بالكامل وجاهزة للحركة، نظر «فاسيلي» إلى الساعة، وقال:

- الساعة الرابعة، أسرع يا «فولوديا» بحيث نصل قبل حلول الظلام.

- سأحاول أيها النقيب.

عبرت سيارة الأورال الباب الرئيس وأسرعت في طريق العودة.

لمعت البيوت المدمرة على جانبي الطريق، وانزاحت جانباً متباعدة على التوالي.

- نسير على نحو جيد، السيارة مُحَمّلَة، صاح «زبروييف» وأدار عجلة القيادة.

حلّت الساعة الكالحة، فقد غابت الشمس خلف الجبال. فجأة سمع «فاسيلي» فرقعة رشقات رصاص من بندقية آلية. رسمت الطلقات الخطاطة خطوطاً مضيئة فوق الطريق أمام السيارة.

- «فولوديا»، أسرع بأقصى ما تستطيع. خاطب النقيب السائق، ثم رفع جهاز الاتصال اللاسلكي إلى أمام فمه وأعطى أوامره: «اثنان، إلى المعركة، يجري إطلاق النار علينا مباشرة، نار».

رفع فاسيلي شخصياً أيضاً بندقيته وأسندها إلى النافذة، وبدأ بالإطلاق على الرغم من أن ذلك كان عبثياً. كان زجاج السيارة مثقوباً في أماكن عدة من حالات سابقة مشابهة، وبدأ الهواء يصفر من خلال هذه الثقوب.

خرجت السيارة عن الطريق السريع ودخلت طريق الأحياء، وتابعت تقدمها، وكان اللافت في الأمر أن أصوات الطلقات اختفت ولم تعد تُسمَع.

- من المتوقع أننا تجاوزناهم، قال «زبروييف»، ومسح حبات العرق عن جبينه براحة كفه.

- أوقف السيارة. خرج النقيب من مقصورة السائق، وقف على العجلة الأمامية ثم نظر إلى صندوق السيارة. على العلب المقلوبة والمختلطة مع بقية المواد الغذائية استلقى الجنود. نهضوا ونفضوا ملابسهم بأيديهم، ثم أزاحوا الأكياس والمعلبات.

- أما زلتم أحياء؟

- تصدينا للهجوم أيها الرفيق النقيب، لا توجد خسائر في صفوفنا، أجابه «سيريوغين» مبتسماً.

- «لايوشكين»، وأنت كيف أمورك؟

- طبيعية، لا شيء يذكر.

- ألم تندم أنك جئت معنا؟

- لا، لا، أيها الرفيق النقيب، ماذا؟ أفي كل مرة يحدث مثل هذا الأمر؟

يحدث أحياناً ما هو أسوأ بكثير، هذه رحلة عادية. إياك أن تجزع أو تجبن، قريباً سنصل إلى القاعدة! في المرة القادمة سأجلبك معي أيها المقاتل.

- لا... هذا يكفيني أيها الرفيق النقيب، الأفضل لي أن أبقى على نقطة التفتيش، قال ذلك واختفى في عمق صندوق السيارة.

* * *

سيريوغا

خارج نافذة القطار الكهربائي تراكضت الخمائل والمراعي والحقول، ولاحت تجمعات البيوت الريفية وأرصفة محطات القطارات. نظر «إيفان» عبر النافذة دونما تركيز، دون أن يلاحظ روعة الطبيعة المحلية.

تنشط إيفان من خلال شفتيه، فقد تبادل الحديث مع «سيريوغا».

جلست قبالته فتاة وأخذت تتفحصه بدقة كبيرة من أخمص قدميه حتى أعلى رأسه. خمنت جيداً - ألا يعوقها وجود جيران كهؤلاء. وضعت فتاة ريفية إلى جانبها سلة ممتلئة بالمواد الغذائية، وكذلك كانت تنظر عبر النافذة. أصبح رصيف المحطة خلفهم، وبدأ يتباعد شيئاً فشيئاً.

- عذراً منكم، ألا تدخنون؟ انتشلت الفتاة بهذا السؤال «إيفان» من سباته.

- ماذا؟

- هل أجد لديكم سيجارة؟

- آها، هزّ «إيفان» رأسه قائلاً: أجل، متوافرة! ودسّ يده في جيبه.

- خذي، أنا على نحو عام أُفَضّلُ سجائر «بيلامور». هذه سجائر «بابيروس»، هل تعرفينها؟

- أعرفها، قالت الفتاة مبتسمة.

- أما صديقي العزيز «سيريوغا» فإنه يدخن «رونو ذهبي» حصراً، أتفهمين قصدي؟ وأنا لسوء حظي نسيت الأمر تماماً، الآن سأضطر إلى الكذب والقول إني لم أعثر عليها نهائياً.

- لمَ كل هذا؟ أكشاك بيع السجائر منتشرة في كل مكان، بلا شك ستجدونها في أحدها على الأقل.

- أتعتقدين ذلك؟ هذا جيد، وعلى الفور هدأ «إيفان»، ومن ثم تابع كلامه: أتتخيلين! أنا و«سيريوغا» نشأنا في حارة واحدة، وتصادقنا منذ نعومة أظفارنا كما يُقال. لعبنا معاً بالثلج في طفولتنا ولمّا كبرنا بعض الشيء لعبنا شرطة وحرامية، وفي أثناء الدراسة كنا في صف واحد. عمل والدايّ في المصنع بنظام

الورديات المتعاقبة، لذلك تصادَفَ أحياناً أن تَغَيّبا عن المنزل لأيام عدة، في أثنائها نمتُ عند «سيريوغا»، أو العكس هو جاء إليّ. كانت والدته الخالة «فاريا» سيدة طيبة وحنون، حاولت جهدها دوماً أن تقدم لنا أشياء لذيذة.

نظر «إيفان» إلى الفتاة، إذ كانت تستمع إليه شاردة الذهن، وبيدها تفرك السيجارة المحطمة.

- ما الذي ذكرني أنا بسجائر «رونو الذهبي»، قال إيفان وابتسم: حتى إنه في الحرب كان يأخذ سيجارة من دون فلتر ويدهنها بالسعوط الفيتنامي ماركة النجمة، ومن ثم يدخنها. كان طعمها يصبح مشابهاً ولا سيّما في العتمة.

- صحيح أن صديقكم «سيريوغا» مخترع، قالت الفتاة الريفية وابتسمت بأريحية.

- هذا صحيح، أجاب «إيفان» وانفجر ضاحكاً، إنه كذلك. ولّما كبرنا أُغْرِمَ «سيريوغا» بفتاة تدعى «تانيا»، كانت أجمل فتاة في حارتنا أو ربما الأجمل في الشارع كله. بسببها كنا كل يوم نتصارع في موقف السيارات، ويتحدى أحدنا الآخر في المبارزة كالفرسان. لكنها اختارت في النهاية صديقي، وكان

هذا أمراً مفهوماً بالنسبة إليَّ، حتى إننا تصادقنا دوماً نحن الثلاثة: ذهبنا معاً إلى السينما، وإلى حديقة الحيوان، وإلى التزلج وإلى كل مكان.

درس «سيريوغا» جيداً دوماً، وأتذكر كم كانت الصدمة قاسية عليه عندما لم يقبلوه في الكلية العسكرية. كان يحلم أن يصبح طياراً عسكرياً، لكن بسبب عيب في النظر لم يقبلوه. وهكذا، تقدمنا إلى الجامعة معاً: أنا، سيريوغا وتانيا، إلى كلية التربية. في نهاية السنة الثالثة رسبتُ أنا في الامتحانات، وعندها اتخذت قراري بإيقاف تسجيلي في الجامعة والالتحاق بالخدمة العسكرية، ففعل سيريوغا الشيء نفسه وقرر الالتحاق بالخدمة معي وعدم تركي وحدي، أحسَّ أن ذلك سيكون قاسياً علي. من كان يدري كيف ستتدحرج الأمور وأن الحرب ستنصب الأفخاخ في طريقنا.

التحقنا بالجيش معاً، وأرسلونا إلى الشيشان معاً. لم يجبرونا بالذهاب إلى هناك، لكن سيريوغا تقدم بطلب للذهاب، وفعلت أنا مثله وتقدمت بطلبي للخدمة في الشيشان، فكيف لي أن أتركه يذهب وحده دون أن أكون إلى جانبه، ولا سيّما أنه ترك الجامعة والتحق بالخدمة من أجلي.

كنا معاً في عربة مدرعة واحدة نتنقل ونتحرك، وقبعنا في خندق واحد، وتجمدنا من البرد معاً، أكلنا حساء الملفوف من قصعة واحدة، ولماذا سنخفي أسرارنا فقد كنا أحياناً نأكل معاً بملعقة واحدة بالتناوب.

تلك المعركة أنا أتذكرها بوضوح شديد. فقد استطعنا حشر الإرهابيين في الوادي. لكنهم كالوحوش الجريحة هبوا علينا كالعاصفة، وانتصبوا بالطول الكامل، هل تتخيلين ذلك؟ وأخذوا يتسلقون الجبل باتجاهنا، وكانت الذخيرة تنفد منا تباعاً. كنا هناك طاقم رشاش واحداً: أنا وسيريوغا.

جاءت التعليمات عبر جهاز الاتصال اللاسلكي: انسحبا، انسحبا! أنا شخصياً لا أتذكر كيف عدنا وقتئذ. أنا سحبت سيريوغا على غطاء خيمة، وامتنع هو لاحقاً عن الشرب، أما أنا فرجلي لم تعد تطاوعني. أقف... أتحدث إليه... أحاول تهدئته، أعطيه بعض رشفات الماء من المطرة العسكرية ومن ثم أُعَاود جرّه باستخدام الغطاء. حتى إنني لم أعِ مباشرة أن هناك جرحاً في رجلي.

في هذه اللحظة نقر إيفان بإصبعه على فخذه اليمنى، ولاحظ النظرة الغريبة في العيون.

- أنها رجل مصنوعة، أجاب بنفسه عن تساؤل تراقص في النظرات، المهم أنا أقول لهذه الطبيبة: «ماذا بعد، أنت تعذبينني كل عام، إن رجلي لا تنمو». أما هي فتقول لي: آلامك وهمية، إنها آلام وهمية. أما أنا فأقول لها: «دكتورة، كيف يمكنك أن تعرفي عن ذلك، إذا كانت كلتا رجليك في مكانهما. هذا يجب أن تحسيه إحساساً». آه، لماذا هناك، ثم أشار إيفان بيده وأضاف: كان سيريوغا أكثر عنفواناً دوماً.

مضى نصف عام ولم نلتقِ أنا وسيريوغا. كما ترون أنا ذاهب إليه. وسحب من تحت مقعده كيساً، وقال: كل شيء كما تقتضي العادات - فودكا، طعام. فقط لم أحضر سجائر «رونو الذهبي»، لكن سأشتريها في طريقي. آه كم من الأحاديث والأخبار يجب أن أقصها عليه. عفواً، اعذروني إنه هاتفي يرن. دسّ يده بسرعة في جيبه الداخلي وأخرج الهاتف.

- ألو ... تانيا! الأمور بخير يا عزيزتي. نعم ما زلت في طريقي إلى سيريوغا. أوي ... لا أعرف، غالباً ليس سريعاً. أنت تعرفينه،

الآن عندما يبدأ بسرد النكت لا يمكن إيقافه. حسناً... حسناً، لن نشرب كثيراً. كيف حال «سيريوننكا؟ هل يركض في أرض الديار؟ إذاً إلى اللقاء، حسناً ... حسناً.

- هذه زوجتي اتصلت، وابتسم من جديد، إنها قلقة عليّ. يا إلهي... هذه محطتي. إلى اللقاء. شكراً لكم، لقد ثرثرت عليكم جميعاً. ودون استعجال نهض من مكانه.

- لا مشكلة، لا تهتم، قالت الفتاة ونظرت بشرود إلى هذا المسافر المتحدث الغريب، دون أن تشعر أن السيجارة في يدها قد تحولت إلى فتات.

أما إيفان فقد اتكأ على عكاز بيد وأمسك الكيس بيده الأخرى، وببطء نزل على درجات رصيف المحطة. من ثم لفترة طويلة مشى على الطريق الترابي المكسو بالأعشاب، يتنفس ملء صدره الهواء النقي والمنعش.

على طرف المقبرة، انكشف قبران، انحنى إيفان على أحدهما وقال:

- تحياتي لكِ يا خالة «فاريا».

أما القبر الثاني فتغطيه بلاطة من الرخام الأسود، من خلالها ابتسم له صديقه القديم، ثم حضن إيفان القبر، وقال: «مرحباً سيريوغا! كم اشتقت إليك يا صديقي. اعذرني، لم أجد سجائر رونو الذهبي في أي مكان».

* * *

صخرة

هبط ضباب بلون الحليب على الجبل، وكانت الشمس قد توارت وراء المنحدرات، وثمة برودة خفيفة غلفت رؤوس الأشجار.

مشت فتاة جبلية جميلة المحيا عبر الخانق الجبلي، تحمل على كتفها جرة ممتلئة بالماء المثلّج. ابتسمت الفتاة للشاب «شامل» ولوحت بيدها مرحبة به. إنها الآن ستقترب منه وتعطيه ليشرب ماء نبع جبلي بارداً كالموت...

- أيها القائد، استيقظ أيها القائد، بإلحاح هُزَّ «شامل» من كتفه ليستيقظ.

- أنا لست نائماً، ماذا حدث، سأل القائد الميداني وفتح عينيه، ونظر إلى المحارب ذي العُصَابة الخضراء الموشاة بكتابة عربية، الذي بدا محرجاً وعاجزاً عن الكلام.

- أنا أسأل: ماذا حدث، ماذا هل ابتلعت لسانك يا «فاخا»؟

- أيها القائد، منذ ساعة مضت اصطدمت المفرزة المتقدمة لقواتنا وجهاً لوجه مع مجموعة استطلاع روسية.

- هل هناك خسائر؟

- لا، عملياً لا توجد خسائر في صفوفنا. على نحو مفاجئ، خرج الروس إلى السهل، فوقعوا مباشرة تحت مرمى نيراننا المتقاطعة. لقد قتلنا جميع أولئك الجقلان، وأما قائدهم فقد وقع في الأسر.

- ماذا، هل استسلم هو بنفسه؟ ورفع «شامل» حواجبه إلى الأعلى.

- لا يا «شامل»، إنه جريح، لقد أسرناه وهو في حالة غيبوبة. إنه هنا، هل ستستجوبه أو نرسله مباشرة إلى التصفية؟

- قده إلى هنا، يجب أن أستجوبه وأستنطقه أين تكمن القوة الرئيسة للعدو. لربما هم يعملون على تطويقنا ومحاصرتنا. لقد أصبحوا حذرين ومخادعين جداً في الآونة الأخيرة هؤلاء الروس.

خرج «فاخا»، ومن ثم عاد دافعاً أمامه إلى داخل الدشمة القائد الميداني، وهو مقاتل شاب في لباس عسكري من النوع الرقيق والخفيف بلون الطين، ومن دون غطاء رأس. نظر إليه شامل نظرة قاسية، وتفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

لقد التقى وشاهد عدداً كبيراً من أسرى الأعداء في هذه الأعوام الأربعة، وكل منهم تصرف على نحو مختلف عن الآخر: منهم من سقط على ركبتيه، ومنهم من أجهش إلى البكاء طالباً الشفقة والرحمة، وآخر أبلغ كل شيء عن رفاقه مباشرة، حتى قبل أن يسأله أحد. والتقى أيضاً مقاتلين حقيقيين أشداء: وقفوا صامتين، أخفضوا نظرهم وانتظروا ساعة موتهم بصبر. كان شامل يحترم الصنف الأخير، ويطلب إلى أصدقائه قتلهم بسرعة.

لكن، لا أحد من الأسرى، لا أحد منهم لم ينظر مباشرة في عين عدوه المنتصر.

قائد فصيلة الاستطلاع هذا كان متماسكاً، وتصرَّف بطريقة مختلفة كلياً. وقف وقد ثنى إحدى ركبتيه قليلاً، كتفه اليمنى ورجله اليسرى ملفوفتان بضماد طبي بشكل بدائي. لباسه ملطخ

في بعض نواحيه بالطين البني وبالدماء، وحذاؤه العسكري ملطخ بطبقة من التراب والطين. شعره الأشعث أشقر اللون ويميل بعض الشيء إلى الحمرة. كان واضحاً أن الألم يعوق تركيزه وعلى الرغم من ذلك كان ينظر مباشرة إلى عيني «شامل». كان ينظر إليه بعينيه الخضراوين من دون أن يزيح نظرته عنه.

- إلى ماذا تنظر؟ قهقه الإرهابي، وأردف: ماذا، ألم تشاهد ذلك من قبل؟

- لا، أجاب الشاب ببساطة، شاهدتها فقط بالصور.

- وهل هناك تشابه؟

- نعم، إنها متشابهة.

- ما هي رتبتك، وحدتك ومهمتك؟

- الملازم «إيفانوف»، قائد فصيلة في فوج الاستطلاع، أكثر من ذلك لن أقول شيئاً.

- إذا أنا أردت فستقول رغماً عنك. غالباً أنت لا تريد أن يُجَزّ عنقك كما تذبح الخراف.

- لا يا «شامل»، لن أقول شيئاً. أولاً: عملياً أنا لا أعرف أي معلومات من النوع الذي يمكن أن يفيدك، ثانياً: أنا أقسمت أن أصون السرَّ العسكري، وأنا أعرف طبعاً أنك في جميع الأحوال لن تتركني حياً.

- شخص فهيم. لكن مع ذلك أنا أعرف كل شيء، بل أكثر مما تتوقع، ففي الوقت الذي كنت تزحف فيه كالخلد في الغابات والوديان، كان رؤساؤك قد أفشوا كل الأسرار مقابل المال. أنا أعرف إعادة التشكيل المنفذ لقواتكم، وأعرف أين ومتى تم تخطيط العمليات القتالية، وأين وُضِعَت المفارز العسكرية، وأين يوجد طوق أمني، ومن أين ستمر الأرتال العسكرية. كل ما في الأمر أريد أن أهديك دقائق حياة إضافية عدة...

- وماذا ستفيدني دقائق حياة إضافية عدة، قال «إيفانوف» مقاطعاً إياه، إذا كانت ستحولني إلى شخص جبان.

استمر الملازم بالنظر مباشرة إلى «شامل» بشجاعة من خلال عينيه الخضراويّن.

- أنا أريد أن أطلب إليك أن تسدي لي خدمة، قال الملازم.

- ولماذا قررت أني سأقدم لك أنت «عدوي» خدمة ما؟

- لأن هذه الخدمة لن تكلفك أي شيء، وسيكون الأمر سيان بالنسبة إليك، كما أن فيها ذكرى من جدودنا.

- من جدودنا؟

- نعم يا شامل، جدودنا حاربوا معاً ضد عدو واحد مشترك. الشيشان والروس مقاتلون أفذاذ، ويمكن أنهم الأفضل في العالم، وإذا ما قرعت الحرب على أبوابنا فعليهم أن يحاربوا معاً، كتفاً إلى كتف ضد العدو الخارجي المشترك، كما فعل أجدادنا عندما انتصروا على النازية الألمانية، وكذلك كما فعل آباؤنا، عندما قاموا بواجبهم الأممي في أفغانستان. هذه أيضاً كانت وصيتهم لنا، لكن نحن لم نفهم ذلك، وتجاهلنا ما قالوه إلى درجة أننا بصقنا على عقابهم المحتمل لنا.

- حسناً، ما الذي أردت طلبه مني؟ قال شامل عابساً.

- جدي لأبي، وكذلك جدي لأمي، حاربا في الحرب الوطنية العظمى، أبي كان طياراً عسكرياً استُشْهِدَ في مصر، وأنا ضابط ومقاتل في الجيل الثالث للأسرة، لذا أرجوك يا شامل ألا تضنّ بالطلقات عليّ، ولا داعي أن تجزَّ عنقي كالخروف.

- أهذا كل شيء؟

- نعم، هذا كل ما في الأمر.

- أنت شخص شجاع، ما اسمك؟

- فولوديا.

- سأنفذ لك رغبتك يا فولوديا، لكن لديَّ أيضاً اقتراح لك: أنت تعرف أنه ليس بالأمر السهل حالياً إيجاد مقاتل جيد، أما هؤلاء، «وأشار شامل بيده جانباً باتجاه عصبة رجال»، فيكفي أن يتأخر الممولون عن إحضار النقود في الوقت المحدد حتى يهربوا ويتبعثروا في الجبال كالجرذان. لذلك، أنا أقترح عليك أيها الملازم أن تنتقل إلى صفنا وتحارب معي. إذا انضممت إلى مجموعاتي فسأجعلك عقيداً، وستصبح قائداً لقوات الاستطلاع، وستحصل على مبالغ مالية لائقة، أربعة أضعاف ما تدفعه لك قيادتك الحالية.

- لا يا شامل، أنا قلت لك إنني أقسمت...

- القسم هو عبارة عن كلمات...

- ليس دوماً. عوضاً عن ذلك، سيكون مطلوباً مني أن أعتنقَ الإسلام.

- وما الذي يمنعك عن ذلك؟ ستصبح أخاً لنا، ولن تبقى غير مؤمن!

- أنا ولدت غير مؤمن. كل أسلافي كانوا مسيحيين أرثوذوكساً. أنا لا أعدُّ نفسي أذكى أو أعلم منهم. صوت رنين الأجراس وطقطقة احتراق الشموع ورائحة البخور - كل هذا متعشق فيّ ومن دون هذا لا حياة بالنسبة إليَّ. أسوأ شيء على الإطلاق هو خيانة ذكرى الآباء. هل يلزمك ذاك الأخ المندفع، الذي بسهولة يبدل دينه ورفاقه ووطنه. من يخن مرة فسيخون في الثانية، أنا لا أريد أن أموت جباناً ولا خائناً. أنت شخصياً كيف تعتقد، أليس هذا هو أسوأ ما في الأمر؟

نظر شامل في عيني الملازم وارتجف. ما هذا الروسي، هل يقرأ له أفكاره؟ مرات كثيرة فكّر شامل بالطريقة نفسها حول هذه الموضوعات ذاتها. أسوأ ما يمكن أن يحدث في الحياة هو أن تموت جباناً وخائناً. إنه محق ذلك الملازم الشاب، كما أنه صلب كالصخرة على الرغم من صغر سنه. هل هذا إنسان عادي؟ الإنسان يجب أن يخاف الموت، أما هو فيبتسم. من الممكن أن هذا ملاك، أرسله إله الروسيين «عيسى المسيح» لإغوائه؟ صمت شامل لفترة طويلة، وأخذه التفكير، وتذكر فترة شبابه النقية والحرة، كيف درس في كلية التربية في مدينة «تفير» الروسية، وكيف أحب فتاة روسية اسمها «لودا»، وتذكر والديه اللذين قضيا نتيجة إحدى الغارات الجوية إبان الحملة الروسية الأولى على الشيشان، تذكر إخوته وأخواته، زوجته وأولاده، الذين فرقتهم الحرب بين المدن والأصقاع. حطم الملازم الروسي له قلبه.

نهض شامل على نحو مفاجئ وسريع. قال كلمة واحدة فقط: لنذهب.

تبعه فولوديا بصمت. مشيا على درب بين الأشجار الباسقة المتناثرة باتجاه الصخرة الكبيرة الموجودة على طرف الغابة، والتي تتسامى بشدة إلى الأعلى.

- أنا شخصياً سأطلق النار عليك، قال شامل، وكان يمشي في المقدمة، ثم أردف: أخشى إن أوكلت الأمر إلى الآخرين ألا ينفذوا رغبتي وأن يذبحوك من الوريد إلى الوريد. لقد اغتاظوا بشدة منكم.

وصلا إلى الصخرة. وقف فولوديا في الأمام، نزف الدم وسال على أصابع يده اليسرى وسقطت قطرات ثقيلة منه على الأرض الرطبة بقطرات الندى، سوّى كتفيه، ثم رفع رأسه، ومن جديد نظر في عيني القائد الميداني مباشرة. ومن جديد سرت رعشة في أوصال شامل فأخفض نظره عن الملازم.

- استدر، قال شامل له آمراً.

- أنا لا أريد أن أتلقى رصاصة في الظهر، أطلق عليّ هكذا. ثم أمسك بأصابعه قلادة الصليب التي يضعها حول رقبته، ورفع رأسه إلى الأعلى، وبعينيه الخضراوين انتشى بمنظر

السماء الزرقاء المغطاة بالسحب، حيث حلق نسر عالياً، فَارِداً جناحيه بحرية.

هزّ شامل رأسه لمدة طويلة كما لو أن نثرة خشب قد استعصت في دماغه، من ثم أخفى مسدسه، نوع «ستيتشكين»، في نطاقه الجلدي، وبخطى مضطربة، ودون أن ينظر إلى الخلف قفل عائداً إلى المعسكر. لاحقاً، لم يشاهد أي أحد القائد العسكري «شامل دادابيف» نهائياً. مضى كأنه أزاح عن كاهله حملاً ثقيلاً. من الممكن أنه عند تلك الصخرة استلقى ناظراً إلى السماء بعينيه الخضراوين ملاك اسمه «فولوديا».

* * *

وسام ثقيل

كان اليوم مشمساً ولطيفاً جداً، أفضل ما يمكن أن يكون للرحلات والتسلية. منذ زمن طويل انتظر «إيفان إيفانوفيتش» أيام العطلة هذه، لأنه تحديداً اليوم سيذهب للتنزه مع حفيدته الوحيدة والغالية جداً على قلبه.

عاش ابن «إيفان إيفانوفيتش» في مدينة أخرى، ولم يحظَ والداه بكثرة دلاله وزياراته لهما، أما عروسه فقد زارتهما مرتين فقط لا غير. على الرغم من كل ذلك فإنهما كانا دوماً ينتظران مجيء حفيدتهما «ليزا» بفارغ الصبر. في اللحظة التي تستلم فيها «إيرينا فاسيليفنا» زوجة «إيفان إيفانوفيتش» الرسالة تضرب كفاً بكف وتستعد لمسح دمعة تتحضر بسرعة في عينها دونما انتظار أو توقع وتنادي:

- ختيار، يا ختيار؟ كتب «فاسيلي» أنه قريباً سيحضر «ليزينكا» إلينا! يا للسعادة والفرح!

بعد أخبار كهذه - قد أصبح عُرفاً - سيزيد النور والسعادة في منزلهما بشكل من الأشكال، دوماً تتحسن الحالة الصحية، وضغط القلب سينتظم ويعود إلى قيمه الطبيعية، وفي الأمسيات تحدث العجوزان مطولاً، وخططا ملياً إلى أين يجب الذهاب، وماذا عليهما أن يبتاعا، إضافة إلى ذلك من المهم أن يعرجا إلى عرابها وإحضار كمية كبيرة من مربى الخوخ الذي تحبه «ليزينكا» كثيراً. حتى إن السعال الجاف الذي أرهق إيفان إيفانوفيتش لسنوات عدة بعد أن تجمدت رئتاه ذات مرة في أرجاء بلغاريا، تراجع إلى حدٍ ما وأحس بالتحسن.

أما إيرينا فاسيليفنا فكانت كل مساء تتصل بجميع صديقاتها القديمات لتنقل إليهن الخبر السعيد، وهن يتأوهن، نعم يتأوهن مهنئات العجوزين على اللقاء الذي طال انتظاره والمتعة والفائدة والانطباعات الرائعة من الحديث مع الحفيدة.

منذ الصباح الباكر، بعناية شديدة، سرحت إيرينا فاسيليفنا الطقم الوحيد الرمادي المقلم الموجود لدى زوجها، وأخرجت قميصاً جديداً.

- أيها العجوز، هل ستضع ربطة عنق؟ أم أنك ستذهب هكذا؟

- وما لزومها يا ماما، إنها كحبل المشنقة، الوضع هكذا جيد أيضاً.

- نعم، هذه حقيقة يا ختيار! شكلك جيد، الوضع هكذا مناسب! ونفسها إيرينا فاسيليفنا أبدت إعجابها بزوجها الذي وقف أمام المرآة في هذا الوقت يمشط شاربيه الأشيبين.

لم يستطع إيفان إيفانوفيتش، الذي عاد إليه شبابه، متابعة «ليزينكا»، التي تتبعه كظله وتتراقص أمام المرآة وتجرب وضعيات متعددة لقوس شعرها الأخضر، كانت تستمتع بكل ما تفعله. وفي الحقيقة، كيف كان ممكناً ألا تحب هذا المخلوق الرائع ذا ثماني السنوات من العمر؟ نعم كان لدى إيفان إيفانوفيتش ولد صبي، وهذه حقيقة، لكن لم تولد لهما في الأسرة فتيات. وفجأة حدثت المعجزة! تزوج ابنهما منذ خمس عشرة سنة مضت، لكن لزمن طويل لم يمنحهما الخالق نعمة ولادة طفل في الأسرة، وفي اللحظة المناسبة حدثت المعجزة وجاء وجه السعد، وارتاح بال العجوزين، وتوقفا عن التفكير، وزال الهم.

- دادي، سنذهب إلى الحديقة أليس كذلك؟ أتوجد هناك أراجيح ودولاب؟ هل سنشاهد النوافير؟ غردت الحفيدة بهذه الأسئلة بلطف.

- سنذهب إلى كل الأمكنة يا ليزا! وسنشاهد كل شيء فيها!

فانيا، أنت تتباطأ كثيراً، ستتعب وتمل الصغيرة، قالت إيرينا فاسيليفنا وهي تنظر إليه نظرة رجاء ووعيد في الوقت نفسه.

- لا تقلقي يا ماما، لن يطول الأمر.

- لا تقلقي يا تاتا، لن نتأخر، جاء صوت الفتاة الصغيرة كالصدى عن صوت جدها.

أمسك إيفان إيفانوفيتش بحرص شديد حفيدته من يدها وقادها عبر الردهة، وفي الطريق كان يتبادل التحية مع العجائز من الرجال والنساء الجالسين على المقاعد الخشبية على طول الطريق.

- مسرورون لأجلك يا إيفانوفيتش، بالسعادة والهناء يا ختيار، ردد الآخرون عند تبادل السلامات مع الجد، ما هذه العروس الجميلة التي معك، ما شاء الله، حتى لو نتفت لك لحيتك فلن تمانع وستكون سعيداً.

انحنى إيفان إيفانوفيتش لهم باهتمام وسرور، إذ أصبح لديه ما يفخر به، وأحس بالزهو لنفسه، وبالاحترام تجاه ابنه.

مشي الختيار مع حفيدته الصغيرة عبر الشارع العريض. هذه هي الكاتدرائية المركزية، التي ضمت في زمن ما في ثناياها متحف كرايفيدتشيسكي. في الجهة المقابلة مبنى المحافظة وعليه يرفرف العلم الروسي ثلاثي الألوان، وبالقرب منه يشمخ تمثال لينين. أما هناك، فيوجد الدرج الطويل، الذي يهبط نزولاً إلى مسافة كبيرة، ترافقه على كلا الجانبين منابع المياه الفوارة ونوافير المياه الممتزجة برغوة تضفي عليها جمالاً وبريقاً.

أحب إيفان إيفانوفيتش مدينته كثيراً، وكان يعتز بل يفخر بها، فيها قد وُلِدَ، وهنا بدأت رحلة دراسته وانضم إلى مدرسة التأهيل المهني. في مقبرة كنيستها رقد أسلافه، ومن هنا التحق بالخدمة العسكرية الإلزامية، وسافر إلى الجبهة في شباط من عام ١٩٤٥م.

ساقه طريقه وقدره إلى بلغاريا، لكن كما قالوا حينها إن الوحدات المقاتلة في مقدمة القوات قد تجاوزت الحدود الألمانية وتتحرك الآن إلى برلين.

كان ذاك الشتاء بالنسبة إلى طقس بلغاريا الدافئ يعدُّ بارداً جداً، بل جليدياً. هناك في مكان ما غير بعيد عن المدينة البلغارية «بلوفديف» تجمدت رئتا إيفان إيفانوفيتش. لكن بعدها شارك في تحرير صوفيا، وهناك استقبل النصر العظيم.

تذكر إيفان إيفانوفيتش كيف سافر عائداً حينئذ إلى المنزل. على الجهة اليمنى من قميصه الرسمي تلألأ وسام الحرب الوطنية العظمى من الدرجة الثانية. تذكر ذلك وابتسم، كيف غنّوا حينئذ «عندما تعود بالوسام، عندها نتابع الكلام». وماذا في ذلك، لقد تم تنفيذ الخطة على الوجه الأكمل.

وهكذا، منذ ذاك اليوم حتى الآن، والهدية القيمة تتصدر لامعة على بزة إيفان إيفانوفيتش، الذي كان على نحو منتظم ينفخ على الوسام ويمسحه بحرص شديد، ثم يلمعه بحرفية عالية باستخدام منديل قطني نظيف وطري.

بعد ساعتين من التسكع في الحديقة السفلية وركوب الأراجيح والألعاب المتنوعة، جلست الحفيدة في حالة من الإنهاك على المقعد الخشبي.

- دادي، أريد أن أشرب.

- لنذهب إلى الكشك، وسأشتري لك علبة مياه معدنية لتشربيها.

- لا، أنا سأجلس هنا. اذهب أنت وحدك، الكشك هناك ليس بعيداً. أنا سأنتظرك هنا ولن أتحرك من مكاني، لا تخف يا جدي، أنا سأهتم بك وسأراقبك.

مشى إيفان إيفانوفيتش باتجاه الكشك ببطء، في حين كانت عيناه تراقب الصغيرة الجالسة على المقعد. أين المشروبات عندكم؟ آها، إنها هنا! سآخذ مياه معدنية وكذلك عصير ليمون. وقف أمامه فتى في أول شبابه، كان ما زال ينظر إلى واجهة العرض، وبدا واضحاً تردده وأنه لم يحدد بعد ما الذي يريده. فجأة انحنى الشاب إلى الأسفل وأخذ يصلح حال جواربه، وفي الوقت نفسه كانت شفتاه تتمتمان كلاماً ما. كانت هناك فتاة تقف بالقرب منه، لكنها استدارت إلى الجهة الأخرى، كما يبدو أنها رفيقته. كانت تربط على حقيبة يدها الشريطة الغريغورية التي ترمز إلى النصر في الحرب الوطنية العظمى.

«لدينا جيل شاب جيد، فَكّرَ الجد في نفسه، ما زالوا يتذكرون ويقرؤون. هذا يعني أن حربنا لم تكن عبثاً».

تباطأ الفتى الذي يقف في المقدمة، عند ذلك أخرج إيفان إيفانوفيتش ورقة نقدية من فئة عشرة روبلات وناولها للبائعة وقال:

- أعطيني عبوة مياه معدنية صغيرة ولا داعي للفراطة.

- ألا تريد أنت أن تقف وتنتظر دورك؟ قال الفتى، ورفع باتجاهه وجهاً شريراً.

- ماذا؟ قبل أن يستوعب ما قيل لكن مع ابتسامة، سأل الجد.

- في الدور، أقول ألا تعرف أن تقف في الدور؟ أيها العجوز العفن!

أحس إيفان إيفانوفيتش كأنه سُلِقَ بالماء المغلي، وغص حلقه بالكلمات. وقف عاجزاً لا يستطيع أن ينبس حتى لو بكلمة واحدة.

- لماذا تصمت؟ تابع الفتى: تكاثر المشردون والشحاذون إلى درجة لا تجد فيها مكاناً لتبصق.

- ماذا بك، هل جننت؟ لماذا استشريت هكذا على الجد؟ انبرت البائعة للدفاع عنه.

- أما أنت فلا تتدخلي، شاركت في النقاش الفتاة التي وقفت جانباً.

كانت تلك الفتاة ذات مظهر لائق وأنيق، وأردفت على نحو مهذب ومتقن: يحق فقط للأشخاص الذين حصلوا على وسام بطل الاتحاد السوفييتي، والذين حصلوا على أوسمة المجد أن يُستَثنوا من الدور. أنا على دراية كافية بجميع القوانين.

قالت الفتاة أشياء أخرى. لم يفهم إيفان إيفانوفيتش كل شيء وسأل: ماذا؟ تذكر فقط كيف تحدثت على نحو هادئ ورزين، وكيف كوت روحه بقطعة معدنية مدببة. لقد غرست الفتاة في قلبه مسامير باردة بيد ناعمة وحنون.

- على كلٍ، أنت لا تشبه المحاربين الذين شاركوا في الحرب الوطنية العظمى، تبدو شاباً بما يكفي، أما الأوسمة في أيامنا هذه فيمكن لأي شخص شراؤها من أماكن مختلفة، هذه ليست

مشكلة، بهذه الكلمات أنهت الفتاة حديثها. ليس عبثاً أنها كانت تدرس في السنة الثانية في كلية الحقوق، لقد كانت معتدة بنفسها إلى درجة كبيرة، وكيف لا؟ فقد رتبت جملها بشكل متقن، ولم ترتكب أي أخطاء قانونية. ولو كانت تتحدث أمام أعتى الأساتذة لكان وضع لها علامة ممتاز على خطابها.

- هيا بنا، لنذهب يا «غينا»، ختمت الفتاة بذلك كلامها.

ظل إيفان إيفانوفيتش واقفاً في مكانه مذهولاً وقد طأطأ رأسه إلى الأسفل.

- أيها الجد، أيها الجد، خذوا عبوة المياه المعدنية التي طلبتم، مدت البائعة إليه يدها بعبوة بلاستيكية، وأضافت: لا تكترثوا لهم ولا تعيروهم أدنى اهتمام.

- أيها العجوز، لقد قلت إن بك عطش، التفت «غينا» إلى الخلف، ناظراً إليه، وابتسم بخبث، وأضاف: ها قد خلصتك منه.

تابع الفتى والفتاة طريقهما على الممشى الذي تحيط به أشجار البلوط العتيقة، يتبادلان حديثاً عاماً غير ذي قيمة.

- جدي، يا جدي، ماذا بك؟ أمسكت ليزا به من كمه وهزته، وأضافت: أأنت بخير، هل تشعر بالسوء؟

تدحرجت على وجنة إيفان إيفانوفيتش دمعة كهلة حارقة. أحس بألم شديد في رأسه، ودهمه سعال جاف هزّ أوصاله.

- لنذهب إلى البيت يا حبيبتي، أُحس بإرهاق ما غير مفهوم. انتظري... قفي... الآن.

نزع إيفان إيفانوفيتش بيدين مترددتين غير مطيعتين الوسام عن بزته، ومعه نزع التكريم ووضعه في جيبه. ببطء شديد، ودون أي صوت أو صخب، سقط الوسام الثقيل من الحرب الوطنية العظمى، من الدرجة الثانية، في قماش الجيب الطري.

* * *

المُقْنِعْ

في الثانية الأولى، لم يفهم هو حتى ماذا حدث. هدرت محركات الطائرة كصوت موسيقا البلوز الأمريكية، وغفا «بوريس» مسترخياً في المقعد المريح المُنَجد بقماش مخملي أحمر، والمُغطّى من الأعلى بمنديل ناعم ناصع البياض شديد النظافة.

فتح بوريس» عينيه ونظر حواليه، وقفت في الممر بين صفوف المقاعد فتاة ليست طويلة، رفعت حاجبيها ونظرت بصرامة إلى المسافرين. تشوهت سحنة وجهها من شدة الغضب، ضمت كفيها بعنفوان وعصبية في شكل قبضة إلى درجة تستطيع فيها أن تُحصي عظيمات كفها وأصابعها من خلال الجلد الأبيض الرقيق.

- ماذا قلتم؟ سأل أحدهم ممن في الخلف، نحن هنا لا نسمع ما يُقَال!

- أنا قلت: اجلسوا جميعاً بهدوء. لا تقوموا بأي حركة، معي هنا قنبلة. هل سمع الجميع الآن؟

لم يرد عليها أحد. ساد في الطائرة صمت جهنمي محقون. كان يُسمَعُ فقط صوت دوران عنفات المحركات.

خرجت المضيفة الجوية من خلف ستارة قمرة القيادة ووقفت مرتبكة، تلاشت من على وجهها الابتسامة الدائمة المرافقة لها في عملها، ومع مرور كل ثانية تغيرت تعابير وجهها أكثر منبئة بحجم الكارثة.

استدارت الفتاة باتجاه المضيفة الجوية وصاحت:

- ليتواجد جميع أعضاء طاقم الطائرة في قمرة القيادة، ممنوع خروج أي منهم، مفهوم؟

هزت المضيفة رأسها، وتراجعت إلى حيث كانت سابقاً. في هذا الوقت، في مقعد ما وسط الطائرة، تذمر طفل.

- أنا قلت أن تجلسوا بهدوء. هدئوا هذا الطفل. أنا لا أمزح! يوجد معي قنبلة!

كان «بوريس» يجلس تماماً قرب الممر. لو كانت هناك رغبة لاستطاع الوقوف ومد يده وملامسة الفتاة. لكنه لم يكن ليفعل ذلك، وبدلاً من ذلك، كان ينظر إليها ويتفحصها بدقة واهتمام. كان مظهرها يوحي بأن عمرها (١٨-٢٠) سنة، ليست طويلة، تقريباً حوالي ١٥٥سم، شعرها داكن اللون. في الأغلب من مواليد منطقة القوقاز. تلبس تنورة طويلة سوداء اللون وسترة

من الجلد الأسود، وتضع على رأسها حجاباً أسود أيضاً مربوطاً إلى الخلف. عيناها سوداوان وتبدو جميلة بما يكفي.

لمّا تنبهت الفتاة إلى أن هناك من ينظر إليها بتمعن ويتفحصها، حوّلَت نظرها إلى ذاك الاتجاه مباشرة، إلى «بوريس»، ومن جديد ومضت عيناها وأبرقتا.

- أدر وجهك! ممنوع النظر إليّ! قالت بغضب.

أغمض «بوريس» عينيه، وفكّرَ: ليست مصيبة المكوث على هذه الحال، إذا كان هذا عبارة عن مزاح أحمق فمن الممكن معاودة النوم، أما إذا كان عكس ذلك فأيضاً لا فائدة من الاستيقاظ.

كان من الممكن أن يكون هذا مضحكاً جداً، لولا احتمال تحوله إلى كارثة حزينة.

منذ نصف سنة فقط أنهى «بوريس» خدمته الاحتياطية في قوى الأمن الداخلي. لقد خدم عشرين عاماً في سلك الشرطة باختصاص طبيب نفسي، وكان يُعدُّ دائماً مُحاوراً محترفاً.

استمرت زوجته «مارينا» أسبوعاً كاملاً تقنعه بأن يمنحا نفسيهما إجازة مميزة ويسافرا لمدة عشرة أيام إلى تركيا للسياحة

والاستجمام، ولّما حصلت على موافقته، وحجزا مكانين في الرحلة القادمة، أعلنوا في العمل عندها استنفاراً شاملاً لأمر ما.

- سافر أنت واستمتع هناك، قالت له مع ابتسامة صفراء يمتزج فيها الأسى بالغضب مع الإحساس بالذنب، سألحق بك بعد يومين أو ثلاثة، وسأكون عندك حتى قبل أن تشتاق إليّ.

نعم صحيح، من الممكن الآن ألا نستطيع فعل أي شيء، لا أن نحس بالشوق أو ...

مع إغماض عينيه، طافت الذكريات والأحداث في مخيلته بسرعة ووضوح لا يمكن توقعها...

بدايةً، تم جمعهم في قاعة الاجتماعات لمعهد رفع كفاءة العاملين في قوى الأمن الداخلي. بعد حديث لم يستمر طويلاً أوضحوا فيه بعض القضايا التنظيمية والخدمية مثل أماكن السكن والعلامات على بطاقات التعريف وبطاقات المهمات وغيرها من الأمور الروتينية، بعد ذلك جرى فرزهم إلى المكاتب المختلفة حيث شُكّلَت فصائل تدريبية. من فئة الأطباء النفسيين جُمِعَ عشرة أشخاص: خمسة شبان وخمس فتيات.

لمّا دخل القاعة عقيدٌ متعبٌ، غزا الشيب شعره بأكمله، وقفوا جميعاً. ألقى السلام عليهم وأمسك بيده سجلاً وبدأ حديثه:

- أيها الرفيق النقيب، وأشار إلى شخص طويل ونحيل: أنا أُعَيِّنُكَ قائداً لهذه المجموعة، خُذ هذا السجل واكتب فيه أسماء أعضاء المجموعة حسب تسلسل الأحرف الأبجدية. كانت نبرة صوته تنم عن شخص لم يتعود تحمل أي ممانعة.

- اسمي: إيفان غريغوريفيتش، وكنيتي: تروفيموف. في مدة ثلاثة أشهر عليّ أن أصنع من كل واحد منكم، «ضعوا خطاً تحت الكلمات كل واحد منكم» مفاوضاً محترفاً. أرجو منكم عدم الابتسام، فالموضوع غاية في الجدية. على الرغم من أنكم أناس في مقتبل العمر، وهذا أمر جيد، لكن تقريباً لدى الجميع مزاج رائع. هذا يدل على أنه ستكون لديكم همة جيدة للعمل، أليس كذلك؟ وابتسم هو شخصياً للمرة الأولى ...

فتح «بوريس» عينيه ثانية، كانت الفتاة تتحرك في صالون الطائرة بعصبية واضحة. نظر الناس إليها بحذر شديد، ودون أن يرفعوا أنظارهم إليها علانية، وتوخوا عدم تلاقي نظراتهم مع نظراتها.

حملت الأمهات أطفالهن ورحن يهززنهم في حجورهن ليبقوا هادئين وساكنين، أما الرجال فقد جلسوا وقد أطرقوا رؤوسهم.

- هذا صحيح، لا داعي لإثارتها، فكر «بوريس» في نفسه. في الأقل حتى الآن...

كان «بوريس» اليوم يلعب دور إرهابي. حسب السيناريو الموضوع، فإنه أخذ امرأتين كرهينتين. لعبت دوري الرهينتين كل من إيرينا بولتنيفا من موسكو، وتانيا غورياتشيخ من منطقة تشيتا[1] وكان الجميع يلقبونها «كيبياتكوفا».

- لقد قلت لكما أن تصمتا، صرخ «بوريس»، وشدّ «إيرينا» من شعرها.

- آي، هذا مؤلم، زعقت إيرينا على نحو ما، الآن سأذبحك أيها الإرهابي. لا تتمادَ في لعبتك!

- اعذريني من فضلك، تأسف «بوريس» وقد احمرّ وجهه.

---

(١) تشيتا - مدينة روسية تقع في القسم الشرقي من روسيا في منطقة بحيرة بايكال.

- لا يهم، لا مشكلة، كل هذا عادي وطبيعي، قاطعهم «تروفيموف»، وأردف: الصبر، تحلوا بالصبر، الإرهابيون لن يتسامحوا، ولن يرحموا أي أحد.

- إيفان غريغوريفيتش، من المفترض أنه علينا إقناع المجرمين، أليس كذلك؟ بناءً على ذلك فنحن مُقْنِعُون ولسنا مفاوضين؟ استدار «بوريس» وقال مخاطباً العقيد.

جرّب المختصون النفسيون كل يوم آلاف وآلاف الحالات، لكن برمجة كل شيء حتى أدق التفاصيل كان طبعاً غير ممكن. كان حل المشكلة المطلوب تحقيقه هو إجبار الإرهابيين على الاستسلام. كل الأحاديث والحوار والطرائق المستخدمة لا تُحتَسَب، ولا تدخل في التقييم، الأهم هو النتيجة النهائية.

أحياناً، تم تحقيق ذلك، وأحياناً كثيرة لم يُكلل العمل بالنجاح.

- الرهينة: هو شخص محتجز بمنزلة رهن بيد المجرم، حتى يتم تحقيق متطلبات أو شروط هذا المجرم، كتب «بوريس» المحاضرة بصبر ودقة و...

نعم! متطلبات! لكن حتى الآن أنا لم أسمع أي شيء من ذلك، سوى أن يجلس الجميع بصمت وألا ينظروا إليها. لم تحدد

المتطلبات بعد؟ أو لم يحن الوقت لإعلانها بعد؟ أو سيفصحون عن جميع المتطلبات لاحقاً؟ من الممكن أنه يوجد على متن الطائرة شريك لها أو ربما شركاء عدة!

- إذا لم يعلن المجرم متطلباته، فيمكن أن يكون هدفه ضمن الخيارات التالية:

الاغتصاب الجنسي أو التحرش الجسدي - غير وارد في حالتنا.

اختطاف أو سرقة طفل - لا يوجد هنا أطفال فقط، بل طائرة ممتلئة بالناس البالغين.

أهداف دينية، طائفية، طقوس عقائدية - أمر محتمل.

أهداف سياسية - أيضاً ممكن، ولا يجوز استثناؤه.

على خلفية إدمان مخدرات - شكلها لا يدل، على الرغم من أن...

انتقام - نعم هناك تشابه، تشابه كبير جداً.

تغطية على شخص آخر مرتبط بجرائم أخرى - أقرب إلى الرفض أكثر منه إلى القبول.

وحدها الشياطين تعرف ماذا! على مدى أكثر من عشرين عاماً في الخدمة الفعلية لم يصادف في أي مرة أن طُلِبَ إليه إجراء مفاوضات

مع إرهابيين حقيقيين. بطريقة ما هو غير محظوظ، أو على العكس إنه ربما محظوظ. أما هنا، خرج إلى التقاعد وخرج إليكِ!

مرة أخرى عَصَرَ «بوريس» بقايا دماغه وبدأ يتذكر الجداول والقواعد المتعددة والمتشعبة، التي أجبروهم يوماً ما على حفظها غيباً.

- الطريقة الأساسية لتسوية النزاع هي مناقشة الشروط، أما المهام الرئيسة فهي المحافظة على حياة الأشخاص الذين يحتجزهم المجرمون.

في المرتبة الأولى، يجب تقليل درجة خطورة التهديدات على المحتجزين، وتقييد وصول الأشخاص العشوائيين والعابرين إلى منطقة العملية، وعزل المجرم عن العالم الخارجي، والتأثير فيه ووضعه تحت ضغط نفسي.

لكن، كل هذا يخصُّ التأثير في العمليات الأرضية. الآن، ليس الوقت المناسب لممارسة الضغط النفسي عليها، وأي ضغط نفسي؟ الآن، إذا ما سَحَبَت مسمار الأمان فبالتأكيد لن يقترب أحد العابرين من منطقة العملية!

يجب على المفاوض أن يتمتع ويُظهر ضبط النفس والتوازن والمقدرة على اتخاذ القرار. في أثناء الخوض في المفاوضات، يُمنع تماماً رفع الصوت وتغيير نبرة الحديث، نعم هذا منطقي وحكيم.

حين إجراء المفاوضات، يجب محاولة كشف وتبيان المعلومات التالية: عدد الأشخاص في خلية المجرمين، نواياهم، المناخ المعنوي والنفسي السائد في الخلية، طبيعة العلاقات فيما بينهم، كشف وإظهار القائد، مدى الجدية في نواياهم باستخدام القوة.

نظراً لما أظهرته هذه الفتاة الشابة فيمكن الحكم بأنها لا تمزح، نواياها واضحة وجلية تماماً، تحويل كل شيء إلى هباء منثور!

مراراً، شارك «بوريس» في التدريب، فقد أدى شبان من وحدات أخرى دور الإرهابيين. أحياناً، تم تخطيط مكان تنفيذ العملية مسبقاً، وأحياناً أخرى اختار «الإرهابيون» المكان بأنفسهم. كقاعدة عامة، لتنفيذ الدروس تم اختيار أماكن في معسكرات الطلائع المهجورة، التي نمت فيها النباتات والحياة البرية دون رقيب أو حسيب، أو في الأبنية شبه المهدمة، أو في الغابات الكثيفة غير المطروقة، أو ربما في حافلة قديمة من دون عجلات.

- أيها الرفيق الرائد، بدأ «بوريس» الكلام، وفي الوقت نفسه سحب الشريط على آلة التسجيل: نحن جاهزون من جديد لإجراء المفاوضات، ربما من غير الضروري تنفيذ الاقتحام؟ أنا سأحاول إقناعهم، يبدو أنهم مترددون بعض الشيء!

ببساطة، هذا لأنهم بدؤوا يتجمدون من البرد، قال القائد وابتسم. حينما يكون الموقف حقيقياً فلا ضير في ذلك أيها الملازم، أما في حالتنا هذه فمن المهم والضروري لديّ أن أختبر جاهزية جميع الاختصاصات، ضمناً مفرزة الاقتحام، هكذا سيكون يا صديقي! دعوا الهرج جانباً يا رفاق، إذا حدث شيء ما - أخبروه، هنا أشار القائد بإصبعه إلى «بوريس» وأردف: عليك أن تمضي في المقدمة تحت الرصاص...

عامل الزمن - هذا هو الحليف الرئيس الأهم للمفاوض. في ذاك الوقت، الذي يوجد فيه الرهائن في مخبأ واحد مع الإرهابيين، سينشأ بينهم شعور بالإعجاب متبادل. هذه حالة واقعية، حتى إنها تحمل الاسم العلمي «متلازمة ستوكهولم».

كم من الوقت مضى علينا؟ خمس وأربعون دقيقة! مدة درس، درس في المدرسة! وماذا أيضاً قالوا لنا في الدروس هناك؟

- اسألوا أكبر قدر ممكن من الأسئلة: أولاً - سينشأ اتصال نفسي، ثانياً - ستحصلون على معلومات قد تكون مفيدة جداً لاحقاً، دعوا المجرمين يستفيضوا في الكلام ويسكبوا كل ما في داخلهم، لا تقاطعوهم، حتى من الممكن مسايرتهم بعض الوقت، حاولوا التقاط أحاسيسهم وانفعالاتهم، وعبروا عن تعاطفكم معهم.

الأمر الأكثر أهمية، بالدرجة الأولى - هو خطة إجراء المفاوضات، على الجميع أن يحفظوها عن ظهر قلب كما تحفظون الشعر.

لا تستعجلوا، وطدوا حلقة من الثقة، استعلموا عن حالة المجرم الصحية، وحددوا نظام التواصل. في خضم كل ذلك، لا تغفلوا الهدف النهائي، وحددوا أين تكمن مصلحتكم الخاصة، وما هو البديل الأفضل، وركزوا دوماً كل الجهود إلى الهدف وليس إلى العواطف الشخصية.

ضجت الأفكار في رأس «بوريس»، وتصادمت في بعض الأحيان، أهم شيء ألا تهمل أي تفصيل، وألا تمرر أي معلومة. تهور بسيط جداً قد يقلب النتيجة رأساً على عقب في الاتجاه السلبي.

أي مفاوضات هي عبارة عن لعبة، لكن يجب أن تعرف قواعد اللعب على نحو صارم، وعندها ستنتصر، أما في حال خسارتك فستكون باهظة الثمن، ولن تكون قليلة الأهمية، وليس بالنسبة إليك فقط.

ثاني أهم خطوة رئيسة: هي «الانضمام» - جردوهم من السلاح، انتقلوا إلى صفهم، حافظوا على قناة الاتصال العكسية، انقلوا الصورة، أعيدوا تشكيل العبارات، أعيدوا توجيه الأسئلة، اعترفوا أن أحاسيس وتصرفات محاوركم صادقة وصحيحة، وتصرفوا بثقة، لكن لا تتراجعوا...

بعد انتهاء الدورات التدريبية جمعوا كل المتدربين في نسق. صافح العقيد «تروفيموف» كل واحد من الضباط باليد، وشدّ على أيديهم، وقلدهم شارة خاصة، هي شارة عزيزة وغالية على قلب كل منهم. عند وقوفه قرب «بوريس» نظر إليه مباشرة في

عينيه، وابتسم قائلاً: «أتمنى لك التوفيق أيها المُقْنِعْ» وربّت على كتف الملازم بحركة فيها ودّ وصداقة...

هذا كل شيء، آن أوان العمل!

فتح «بوريس» عينيه، كانت الانتحارية تقف قربه خافضة رأسها.

- ما اسمك يا بنتي؟ لفظ كلماته بطريقة لا أنعم ولا ألطف منها.

- خديجة، أجابت بطريقة، كأن آلة تكلمت، وفي التو غيرت سحنة وجهها بشكل شريري وأردفت: لا تتجرأ وتنادِني ابنتي ثانية، واضح؟!

- لديّ ابنة في مقتبل العمر، تشبهك، مثلك تماماً، أعتقد أنكما من العمر نفسه، لذلك، تلقائياً أنا ناديتك هكذا يا خديجة.

- والداي استُشْهِدَا، بعدها، لا يمكن لأي أحد أن يناديني هكذا، قالت الفتاة وبدا جلياً في نظراتها كمية هائلة من الشوق، جعلت «بوريس» حقيقةً يشعر بالشفقة الشديدة تجاهها.

- أبي أيضاً استُشْهِدَ في الحرب، في أكثر الحروب ضراوةً، تلك الحرب التي أثرت في البشرية كلها، وكادت توقف التطور البشري، تابع كلامه: على كلٍ، أي حرب هي كارثية في حال من الأحوال، ولا تجلب للناس سوى الأسى والمرارة والتدمير. أنت طبعاً محقة، على الشخص الانتقام لأجل ذويه، وهذا فعل مُسوّغ. لكن، من الضروري اختيار هدف الانتقام على نحو صحيح. أخبريني من فضلك، هل هؤلاء البشر - وأشار بيده إلى جميع الناس في صالون الطائرة - مذنبون فيما حدث آنذاك؟

- هم من الروس، وهذا يكفي. وتخلل كلام الفتاة إحساس بعدم الثقة والتأكد.

- ليس الجميع، هنا يوجد مواطنون أتراك، وليس هذا فقط. ثمة الكثير من المسافرين من المسلمين. هل سيكون من العدل أن يعانوا هم أيضاً وأن يدفعوا هم الثمن؟

أشارت خديجة برأسها دلالة النفي.

- هذا يعني أنه ربما سيكون صحيحاً أن ندع الطائرة تهبط بسلام؟

هزت الفتاة رأسها موافقةً.

- أنت هنا المسيطرة، ويجب أن تفصحي أنت شخصياً لطاقم الطائرة عن ذلك.

بعد ذلك، جلسا كلاهما إلى جانب بعضهما، واستمر «بوريس» في الحديث معها دون توقف، ولم تكن هي تقاطعه أو تسأله عن أي شيء. حدثها «بوريس» عن قصص من تجربته الشخصية، وأوضح بعض الأشياء بيديه، طقطق بلسانه، ضحك، أدار رأسه يمنة ويسرة، وشرح لها حقائق مشتركة. كانت الفتاة تستمع إليه باهتمام متزايد، وأشرقت في عينيها رغبة في متابعة الحياة، وبدت كأنها استفاقت من نوم عميق، مرات عدة هزت رأسها موافقة «بوريس» فيما قال، حتى إنها في إحدى المرات ابتسمت. لقد رأى الهدف، الهدف الرئيس - الإقناع.

لمّا لامست العجلات مدرج المطار، هدأت ضربات قلب «بوريس» بعض الشيء، لكن الموقف كان لا يزال معقداً وبعيداً جداً عن الحل النهائي.

- سيعطوننا سلماً للطائرة، لكن لن يكون قربه أي أحد، كما أنت طلبت، تلفظت المضيفة الجوية بهذه الكلمات، وابتلعت غصة في حلقها، وسعلت سعلة خفيفة عوضاً عنها.

نظرت خديجة إلى «بوريس» نظرة غير متأكدة من العمل، وعلى الفور أشار إليها برأسه للأمام من أجل الموافقة.

- هذا صحيح بالكامل، نطقت الفتاة ونظرت ثانية إلى «بوريس» ثم أردفت: جميع المسلمين الموجودين على متن الطائرة - اذهبوا، أنا أطلق سراحكم، قالت خديجة بصوت عالٍ.

في البداية، جلسوا جميعاً صامتين كما في أول الأمر غير مصدقين ما سمعوا، بعد ذلك، بدؤوا بالنهوض من مقاعدهم شيئاً فشيئاً، وبشكل متردد، والمضي باتجاه باب الخروج، واختفوا بسرعة في المقصورة المواجهة لباب الطائرة الخارجي. أكثرهم عجلة في المغادرة شخص سمين أفطس الأنف، «أرثوذوكسي متأسلم»، شعره أشقر، يربض ككومة قشٍ على رأسه، ويضع طوقاً ذهبياً حول عنقه، أما على الإصبع الوسطى فقد تأرجح صليب ضخم معلق بخاتم.

نظرت الفتاة من جديد إلى «بوريس»، وقالت:

- ليخرج أيضاً العائدون إلى تركيا، ولينحنوا للإسلام المقدس، وليتّبِعوا هذه الديانة فيما بعد. نعم، النساء والأطفال أيضاً أحرار!

بعد عشر دقائق، نظر «بوريس» حواليه، كان هناك فقط في آخر مقعد شاب في مقتبل العمر يغط في النوم، وكان قد لاحظه مذ كانوا على أرض المطار، حيث إنهم أرادوا إبعاده عن الرحلة ومنعه من السفر كونه في حالة سُكْرٍ شديد.

- أنا أخاف الطيران، قال الشاب عندها بلسان رخو ومتلعثم.

كم أنت محظوظ وسعيد، فكر «بوريس» في نفسه، وتداعت أفكاره: لماذا دوماً يحالف الحظ السكارى والحمقى؟

- أما الآن، فلنذهب نحن أيضاً أيتها الفتاة، قال لها بصوت واضح.

في البداية انهمرت الدموع من عيني خديجة، ومن ثم أجهشت إلى البكاء، والتصقت بكتفه.

لم يحاول إيقافها، ولم ينبس ببنت شفة، ترك لها المجال لتلفظ من خلال بكائها كل القهر والمعاناة، كانت لا تزال يافعة بكل معنى الكلمة.

- اذهب وحدك، تراجعت هي منكمشة، وأضافت: أنا لم أنفذ مهمتي. على جسدي تم إخفاء اثنتي عشرة عبوة من التراتيل[1] شديد الانفجار، أنا سأبقى هنا وأكمل ما كنت قد بدأته.

- كم عمرك؟ سألها وهو يحدق إليها مباشرة.

- ستة عشر عاماً.

- ما زالت مهمتك أمامك يا خديجة! أنا سأقول لك بما تتلخص هذه المهمة: أن تحبي، وأن تكوني محبوبة. أن تتزوجي وتنجبي أولاداً! هذه أيضاً مهمتك. هؤلاء الذين أرسلوك إلى هذا الفعل الأسود، الآن يضحكون ويحصون النقود التي حصلوا عليها. ألم يكن مطلوباً منك أن تفجري القنبلة والطائرة ما زالت في الهواء؟

---

(١) مادة شديدة الانفجار، أشد بعدة أضعاف من مادة ت ن ت.

- نعم، صحيح، لكن في البداية أنا خفت، وبعدها أنت تكلمت معي. ما اسمك؟

- بوريس.

- اذهب يا بوريس، أنا سأبقى هنا. في جميع الأحوال لن يدعوني أخرج من هنا. هناك خارجاً، المكان بأكمله مطوق برجال الشرطة، وغالباً القناصون منتشرون حول الطائرة يرصدون كل حركة.

- نحن سنذهب معاً، الروس لا يتركون رفاقهم، وابتسم مشجعاً، أنا سأمضي أولاً وأنت ستمشين خلفي تماماً، خطوة بخطوة.

- لا تطلقوا النار، نحن نستسلم، قال بصوت عالٍ وهو يرفع بيده منديلاً أبيض. سارت الفتاة خلفه على مدرج المطار التركي خافضة رأسها.

مرة أخرى، وَمَضَت أمام عينيه نظرتها التائهة، عندما أجلسوها تحت الحراسة في سيارة الشرطة.

- لا تخافي يا خديجة، لن أتركك وحدك! أتسمعينني؟ سأكون معك يا خديجة! صرخ بأعلى صوته، لكن سيارة الشرطة كانت قد شغلت بوق الخطر، وسارت في شوارع مدينة إسطنبول التركية.

* * *

أربعة كيلوغرامات

تجاوزت السيارة آخر حاجز للتفتيش، وفي هذه النقطة تتفرع الطريق إلى مسارين. إذا ذهبت في المسار الأول المستقيم فإنك ستصل إلى مطار «سيفرني»، أما إذا مضيت في المسار الثاني باتجاه اليسار فستقودك الطريق إلى مجمع المساكن العسكرية، حيث توجد كتيبة طبية وخدمية مستقلة أو يمكن عدّها مستشفى عسكرياً مصغراً. قبل الوصول إلى المجمع يوجد عدد من الخيم الصغيرة، مارست فتيات شيشانيات فيها تجارة المواد البسيطة المستخدمة في الأعمال الضرورية اليومية، مثل: المواد الغذائية، مواد التنظيف، سجائر وألعاب طرية. تحديداً في هذا المكان اشترى «نيكيتا»[1] هدية لابنته، هي عبارة عن قردة مرحة ومضحكة، إذا ما ضغطت على رجلها اليمنى ستغني بعض الأغاني من خلال مكبر صوت بلاستيكي صغير موضوع بين الفم والأنف.

---

(١) اسم علم مذكر روسي.

انزاحت السيارة إلى يمين الطريق بزاوية غير كبيرة، ووقفت.

- حسناً يا نيكيتا، لقد وصلنا. نظر «فولوديا مانوخين» بتعب إلى «نيكيتا»، وقال له: اقفز، هيا، أنا سأنتظرك هنا. أخرج «فولوديا» من جيب سترته المموهة علبة سجائر.

- فقط اترك بندقيتك الآلية في مقصورة السيارة، فلن يسمحوا لك بدخول المستشفى العسكري مع السلاح.

تنهد نيكيتا، وقفز من سيارة الأورال، ونزع الجعبة والعدة الميدانية ووضعها جميعها مع بندقيته الآلية، ذات الأخمص الخشبي، على المقعد في مقصورة السيارة. آه، كيف بدأ كل شيء على نحو جيد!

أحب نيكيتا التجول في أسواق مدينة «مازدوك». كان العسكريون مدللين هنا، إذ كان منظر الأشخاص الذين يرتدون اللباس العسكري المموه يستهوي أفئدة النساء، اللواتي يعملن بائعات في السوق، ولا سيّما أنهم كانوا يشترون كميات كبيرة وأشياء غالية ومن دون مساومة أو تذمر. كقاعدة عامة، كان الوقت محسوباً ومحدداً بكل ثانية فيه عند هؤلاء الشبان، لذلك من دون إضاعة للوقت اشتروا كل ما وقعت عيونهم عليه على تلك البسطات.

هنا، في هذا السوق، من الممكن شراء أي شيء يخطر في البال، بدءاً من بطاريات المصابيح الكهربائية وليس انتهاءً بهوائيات أجهزة الاتصال أو لواقط البث الفضائي، أجهزة تلفاز وغسالات آلية، مسامير وبراغي، أجهزة تسجيل فيديو ومكنات حلاقة. وعلى مسافة ليست كبيرة من ذلك المكان، كانوا يبيعون المواد الغذائية بأنواعها والفواكه المختلفة، كما يمكنك أن تجد السمك بحالاته المختلفة، سواءً الطازج أم المجفف أم المملح وغير ذلك، وجميع أنواع المارتديلا، وكذلك القهوة.

على امتداد صفين من المحالّ وقفت نسوة كوريات الأصل، يروجن لشراء المقبلات الكورية المتنوعة المصنعة حسب المطبخ الكوري: من الملفوف والجزر، ومن الأسماك ومن لحم الخنزير، ولحوم الأبقار، ومن الفطر والسبانخ، وتلحّ عليك أن تتذوق من كل نوع، طالما دخلت هذا السوق فلا بدَّ لك أن تتذوق تلك المقبلات.

إنما، أكثر مكان استهوى «نيكيتا» هو التجول بين صفوف محالّ الفواكه، وأكثر ما جذبه كانت أنواع البرتقال واليوسفي، فقد توافرت أنواع كبيرة الحجم، برتقالية اللون، لذيذة الطعم

والرائحة. هناك يمكنك أن تجد برتقال اليوسفي الحقيقي من زراعة مقاطعة «أبخازيا»[1] الشهير والمميز. كانت تُباع في صناديق من الخشب وتُغطى بأعشاب خضر غضة.

كانت رائحة برتقال اليوسفي تُذَكّر بليلة رأس السنة والطريق الطويلة. لمّا كان «نيكيتا» صغيراً، كان ينتظر ليلة رأس السنة، وكان في تلك الليلة يسترق النظر إلى ما تحت شجرة عيد الميلاد، وبالتأكيد كان يجد كيساً يحتوي برتقال اليوسفي أخضر اللون وحامض الطعم، كان ينزع قشرها ويأكلها بسعادة غامرة وبشعور من التبجيل. حيث كان إحضار برتقال اليوسفي إلى المنزل الروسي إحدى الصفات المميزة والأعراف النافذة لعطلة رأس السنة. كانت حقيقةً، تمتاز، بشكل من الأشكال، بشيء من الإدهاش والتأثير السحري. كان يروق لنيكيتا دوماً أن يتخيل كيف تنمو تلك الفواكه البرية. لا شك في أنها تنمو على أشجار ضخمة كثيرة الأغصان. حتى تنمو تلك الأشجار وتعطي الثمار اللذيذة، يجب أن يرعاها ويعتني بها رجل عجوز ذو شاربين طويلين متهدلين، من

---

(١) أبخازيا: - مقاطعة ذات حكم ذاتي تقع على الشاطئ الشرقي للبحر الأسود.

الشعب الأبخازي. هو بنفسه يسقي الأرض الصلبة بنية اللون، بالماء، يقصقص بعض الأغصان، ويشذب قسماً آخر، ويزيل أخرى نهائياً تماماً كما يفعل جد نيكيتا في مزرعته. لاحقاً، تجتمع فتيات مرحات تزين الضحكات وجوههن ويضعن مناديل مزركشة على رؤوسهن ويربطنها بالطريقة القوقازية ليقطفن برتقال اليوسفي عن الأغصان مع ترديد الأغنيات والأهازيج، ثم يوضبنها في الصناديق والسلال المعدة سلفاً.

قطارات أو ربما طائرات تنقل محصول اليوسفي في صناديق خشبية كبيرة، كي يجدها لاحقاً الفتيان والفتيات الصغار بلهفة وإعجاب في بيوتهم تحت شجرة عيد الميلاد أو في صُحْفة على مائدة رأس السنة، وليتلذذوا بمصمصة أو قضم فصوصها بطرائق مختلفة فيها من الإبداع والخيال على عدد هؤلاء الأطفال.

أكثر من أزعج شرطة مكافحة الشغب هم جموع الغجر، إذ انتشروا في كل الأماكن، وتطفلوا على العساكر، واستجدوا منهم المال: «يا سيد، من مال الله، لو بضع نقود، ليس معي ما يكفي لشراء الخبز»، على هذا النحو كانوا يطلبون ويلحون في الطلب.

أحياناً، اضطروا إلى إعطائهم بعض الصدقات وإلا لما قدروا على التخلص منهم. كانت الغجريات الراشدات يخشين الاقتراب من الشبان الذين أطلقوا لحاهم، لكن ذات مرة، ومن دون وعي أو تفكير، اقتربت فتاة شابة غجرية جميلة من سيارة الأورال التي تقلّ شرطة مكافحة الشغب وطلبت منهم نقوداً.

- لماذا لا تعملين يا حلوة؟ سألها «أندري كوروبوف» الملقب بـ «تيتانيك».

- لأنه لا يوجد عمل يا سيد! سبعة أطفال صغار مرميون على المقاعد الخشبية وليس هناك ما أطعمهم.

- ألا يوجد عمل؟ سألها «أندري»، وقد أمسكها بشدة من يدها، ثم أردف: اصعدي إلى صندوق السيارة، الآن ستكسبين الكثير من النقود!

عند ذلك بصعوبة حررت الغجرية يدها من قبضة «تيتانيك»، وبعد ذلك لم يرها أي أحد مطلقاً في أماكن وجود العساكر، حتى زميلاتها الغجريات الأخريات خفن الاقتراب، سواء لطلب المال أم حتى للتبصير والتنجيم لهؤلاء الشبان الذين لا يرحمون.

نظر «نيكيتا» إلى الصناديق الممتلئة باليوسفي، وفي الحال هيجت ذكريات الطفولة روحه.

- لماذا تنظر هكذا أيها النقيب؟ تشجع واشترِ، قال الفتى اليافع، ونظر إلى «نيكيتا» بمرح وأضاف: فقط البارحة قطفتها عن الأغصان.

- ليكن إذاً، أعطني كيلوغرامين منها.

- لماذا فقط اثنان يا عزيزي؟ اشترِ مباشرة خمسة كيلوغرامات، إنها من صنف فاخر.

- لا، لا داعي، خمسة سيكون كثيراً جداً.

- لماذا هذا كثير؟ ستأكلها مع الأصدقاء، ولن يبقى لك شيء، وستهرع من جديد إليّ وستقول لنفسك: لماذا اشتريت فقط هذه الكمية القليلة.

- لا بأس، قال «نيكيتا»، وأشار بيده إلى الصندوق، وأضاف: لتكن أربعة كيلوغرامات، وبالفعل سأدعو رفاقي ونستمتع بأكلها، الجميع يحبون اليوسفي.

تناول الفتى كيساً من النايلون، وبحيوية ومرح وضع فيه الفاكهة، ووقف على رجل واحدة كراقص في السيرك عندما وزنها بميزان يدوي، وقال:

- أربعة كيلوغرامات وحبة مسك، الزيادة هدية مني لك. كان يتحدث بروح طيبة ومرح ملحوظ، ولم يمنعه عمله عن ملاحظة مرور فتاة جميلة بالقرب منهما، فغمز لـ «نيكيتا» باتجاهها ضاحكاً.

على طول الطريق من «مازدوك» حتى العاصمة الشيشانية «غروزني»، كان «نيكيتا» يقشر ويأكل اليوسفي. جلس في مقصورة سائق سيارة الأورال ووضع الكيس بينه وبين «فولوديا مانوخين» الذي قاد السيارة، وقال:

- تفضّل يا «فولوديا»، تذوق هذه البرتقالات.

- لا شكراً يا «نيكيتا»، أنا لا أحبها، عندي خيارات أخرى، وأخرج من حقيبته عبوة شراب «جن - تونيك» وسأله: هل ستجرب هذه؟

- لا شكراً، لا أريد. وبدلاً من ذلك أخرج سيجارة وأشعلها.

هكذا سارت السيارة وهما يتحادثان، و«نيكيتا» بشكل ميكانيكي يلتقط من الكيس حبات اليوسفي واحدة تلو الأخرى، يقشرها ويأكلها دون أن يحس على نفسه، فقد كانت سهلة التقشير ولذيذة الطعم. لم يكذب الفتى البائع، ففي الحقيقة كانت البرتقالات ناضجة تماماً وحلوة المذاق على نحو محبب جداً، وبحركة بسيطة من يده قشرها ورمى القشور في كيس النايلون نفسه. لمّا وصلا إلى مدخل مدينة «غروزني» كانت يده تبحث بين القشور في الكيس دون جدوى وأدرك أنه لم يبقَ هناك سوى القشر فقط.

- هل تعلم يا «فولوديا»، على ما يبدو أني التهمت كل البرتقال، أربعة كيلوغرامات. كنت أنوي أن أُضيّف منها الرفاق.

- يا للهول، صحة وألف عافية، قال «فولوديا» ملوحاً بيده مستغرباً.

بدأ «نيكيتا» يحس بحكة مزعجة في كامل جسمه بعد يومين من الرحلة. فتش جسمه بعناية ولاحظ وجود بقعة حمراء تشعره برغبة بالغة في الهرش.

«يبدو أن حشرة متطفلة قد علقت بي، هذه نتيجة النوم في الفنادق والتسكع من زاوية إلى أخرى، يجب الآن زيارة المستشفى العسكري، اللعنة على إبليس، هذا ما كان ينقصني»، أفكار كهذه جالت في خاطر «نيكيتا».

في المستشفى العسكري استدعوا الملازم الطبيبة «فينيرا زاخاروفنا» - مختصة بأمراض الجهاز البولي - التي نظرت إلى «نيكيتا» باستغراب ولوم، وإلى جانبها وقفت ممرضة شابة جاهزة لكتابة التشخيص الطبي للحالة المرضية، وكانت تنظر إلى الطبيبة نظرة استفهام.

- هيا أيها النقيب، أرنا ما لديك!

- ماذا أريكم؟

- اخلع السروال ودعنا نفحص حالة الأعضاء التناسلية، أنا أعرفكم جميعاً! ما أن تتعرفوا إلى أي فتاة فإنكم لا تتورعون عن الذهاب معها إلى أبعد مدى ممكن، وكيفما اتفق. هل تعلم يا أخ كم من الحالات المماثلة قد صادفت في عملي هذا هنا؟ كانت تتحدث وتقوم بعملها في آنٍ معاً. نظرت

إليه مدهوشة، وقالت: ما هذا؟ لا شيء غير طبيعي هناك، لا أفهم شيئاً! ما مشكلتك إذاً، ممَّ تعاني؟

- أنا لا أعاني من مرض بولي!

- لماذا جئت إذاً، هل تتدلل؟

- لم تمنحوني الوقت لأوضح لكم وطلبتم إليّ مباشرة نزع السروال، مشكلتي هذه! وأزاح «نيكيتا» قميصه، وأشار إلى البقع الحمر، وقال: انتشرت في كل جسمي، وتحكني على نحو لا يحتمل، ولم تعد لديّ القوة للتحمل!

- رفعت الطبيبة عينيها، فقد فهمت الحالة من نظرة واحدة، كان كل شيء واضحاً، ثم طلبت إليه ارتداء ثيابه.

- هكذا إذاً، ماذا تناولت من الأطعمة أو المشروبات المثيرة للحساسية في الأيام الأخيرة؟ ونظرت إليه نظرة مباشرة.

- فعلياً لا شيء.

- فكر قليلاً، تذكر: هل تناولت عسلاً، معلبات، حمضيات!

- نعم، نعم منذ يومين أكلت برتقال اليوسفي.

- قلت يوسفي، وكم حبة أكلت؟

- أربعة كيلوغرامات.

- مااااذا؟ كم قلت؟ أرررربعة كيلووووغرامات؟! ما بك أيها الأخ، لقد تجاوزت كل المقاييس، وبدأت الطبيبة بالضحك، أرجعت رأسها إلى الوراء وضحكت بصوت عالٍ. ولمّا نظرت الممرضة إليها أخذت تضحك مسرورة أيضاً.

- أيها الرفيق الملازم: ماذا أكتب له في التشخيص؟ سألت الممرضة بعد أن هدأت من الضحك ومسحت عينيها من الدمع.

- ماذا تكتبين؟ يا إلهي، لقد أضحكتني! أربعة كيلوغرامات! لأول مرة أسمع مثل هذا! كم عاينت من المرضى هنا، لم يسبق أن وردني مثل هذا، أنت أول حالة من هذا النوع! أربعة كيلوغرامات! وأين وضعتها؟ كيف ابتلعتها؟ اكتبي يا «كاتيوشا»: حساسية شديدة تجاه الحمضيات. أربعة كيلوغرامات! ومن جديد انفجرت ضاحكة.

تذكر «نيكيتا» كيف وقع العام الفائت في خندق والتوت رجله. عندها ازرقت رجله وانتفخت مكان الألم. بدايةً، توقعوا أنها مكسورة، لكن بعد التصوير الشعاعي لم يثبُت أن فيها كسراً، واتُخِذَ

القرار بأنه رضّ قوي فقط. يومها، الممرضة التي أجرت له التصوير الشعاعي أيضاً ضحكت بمرح وقالت:

- رجلك، أيها الرفيق النقيب، متمرغة وكأنها فرصع خنزير.

- في هذه الحالة، أيتها الأخت، سأعزمك اليوم مساءً على شوربة مقادم، أجابها «نيكيتا» وهو عابس من شدة الألم.

واليوم، تكرر الشيء نفسه. ما بالهم جميعاً هنا مضحكين! فكر قليلاً ثم قال بصوت مسموع ومنزعج: أنا سعيد اليوم لأنني حققت لكما هذه الدقائق اللطيفة والفرحة.

- لا، لا تنزعج يا سيادة النقيب، ضحكت من سعادتي، لأنكم لم تصابوا بشيء جدي. ومسحت «فينيرا زاخاروفنا» يديها بمنديل معقم، ثم أضافت بنغمة جدية: ممنوع تناول المعلبات، وقلل ما أمكن من الكحول، وأهم شيء في غضون الشهرين القادمين أن تنسى بالمطلق كل ما له علاقة بالبرتقال ولا سيّما اليوسفي. أربعة كيلوغرامات! أمر غريب. ومن جديد ابتسمت وهزت رأسها.

* * *

أنا حاربت
وشربت بحراً من الفودكا

ضربت موجة خضراء الشاطئ المغطى بالأصداف الصغيرة متعددة الأشكال والألوان، أحس «فاليرا» بسعال مخنوق مزعج فشرب جرعة ماء من عبوة بلاستيكية كانت بحوزته، علّه يتخلص منها.

على الرمل الأصفر اجتمعت صحبة مرحة. أضاءت الشمس كل شيء وكل مكان، إلى درجة أن كان الوضع مثالياً للاستلقاء على شاطئ البحر والاسترخاء والتنعم بالجو الجميل دون أدنى عمل أو جهد.

وصل «أندري» إلى المنتجع الصحي اليوم فقط، أما المجموعة التي انضم إليها دون إرادة منه فقد وصلت منذ أيام عدة مضت.

- لنذهب بسرعة، استعجلته بالحركة فتاة اسمها «لينا» قادمة من موسكو، كانت قد لبست بسرعة صندلاً وتمتمت: أصبح الجميع هناك، وكذلك «فاليرا».

- «فاليرا»؟ ومن يكون هذا الشخص «فاليرا»؟

- أووووه، صفقت «لينا» بيديها وقالت: إنه روح مجموعتنا هذه، المحرك والمخترع فيها. حتى إنه لم يقل لأي أحد من أي مدينة جاء. على نحو عام، تتكون حياته من أسرار كبيرة مغلفة بدخان التعتيم، كما يُقال. إنه يقص الحكايات المختلفة بطريقة فريدة وممتعة. لكن في الواقع، أنا أعتقد أن له علاقة مباشرة مع هؤلاء، أتفهمني؟

- من تقصدين بهؤلاء؟

- ما بك أنت، لا تفهمني، ثم اقتربت منه أكثر، وأخفضت صوتها، وقالت: له علاقة بجماعة الأمن، هل عرفت من هؤلاء؟

- آها، ثم أضاف «أندري»: هذا أمر جدي.

كان الرفاق قد جلسوا في شكل نصف دائرة، في المنتصف، على منشفة كبيرة استقر «فاليرا» الشخصية المحورية الخاصة. من حيث الشكل يبدو عمره بين الثلاثين والخمسة والثلاثين، طويل بجسم متناسق، له شعر طويل لامعٌ ويضع صليباً في سلسال ذهبي ثخين.

جلست إلى جانبه فتاتان وشاب يافع، من شكله يبدو كطالب.

- لتتعارفوا، هذا أندري، لقد وصل إلى هنا اليوم فقط، قالت «لينا» ورمت صندلها جانباً على الرمل.

- «آنيا»، «سفيتا»، عرّفت الفتاتان بنفسيهما وابتسمتا.

- «إيفان»، عرّف الطالب عن نفسه، ثم نهض وصافح «أندري» يداً بيد.

- «فاليري»، عرّف الشخص الخاص عن نفسه، وانحنى إلى الأمام دون أن تقف روح المجموعة، وسأل: من أي الأصقاع جئت؟

- من «فارونيج»، هل سمعت بها؟

- طبعاً سمعت، ومن جديد ارتشف «فاليرا» شربة من مطرته.

- «فاليرا»، من فضلك أكمل لنا قصتك، ألحت «آنيا» و«سفيتا» عليه.

- أنا لا أعرف هل ستكون ممتعة للمنضمين الجدد، قال فاليرا وتصنع التثاؤب.

- طبعاً ممتعة، قالت لينا وعدلت من جلستها لتصبح أكثر راحة.

نظر فاليرا نظرة فيها تساؤل واستفهام إلى أندري.

- عمّ تتساءلون؟ بالتأكيد أكمل الحديث، لا تهتم لأمري، قال أندري وخلع قميصه ونام على بطنه واضعاً كتفيه بمواجهة أشعة الشمس وفي الوقت نفسه تجهز للاستماع.

- هكذا كان، تابع فاليرا حواره الذاتي، أنا قلت لهم: «أي مشكلات أيها الإخوة، أنا جاهز دوماً لمساعدة المحتاجين».

- انتظر، قاطعه إيفان وسأل: هكذا مباشرة في الشارع اقتربوا واقترحوا؟

- صديقي، أنا أقول لك، هم عرفوا ممّن يقتربون، ولمن وماذا يقترحون! تابع فاليرا كلامه وقد رفت عينه بامتعاض. بعدها نظر إلى الوشم المطبوع على كتفه: عقرب بلون أزرق، له مقصات مسنونة يرفعها إلى الأعلى، وهو جاهز في أي ثانية لإقحام إبرة ذيله السامة في العمل.

- من لديه مثل هذا الوشم، هذا مرتبط بمفارز المهام الخاصة، هكذا إذاً؟ نظر أندري إلى وشم العقرب بتمعن.

- شيء ممتع أن تكون في علاقة مع شخص شاهد عيان، ابتسم المحدث ابتسامة عريضة بما يكفي، لكن هسسسس عن هذا الأمر وزيادة في التأكيد وضع إصبعه على شفتيه.

- لا تقاطعوه، امتعضت آنيا.

- تابع يا فاليرا، قالت سفيتا ونظرت إليه بعينين عاشقتين.

- إذاً، اقتربوا مني في الشارع، هكذا وبكل بساطة، قالوا: يجب مساعدة الأصدقاء، فالأصدقاء في محنة. لن أسرد كل شيء، «مرة أخرى شرب جرعة من المطرة، عند ذلك أحس أندري برائحة خفيفة لكنها نافذة»، لأنه حتى الآن لم تُرفَع السرية العسكرية عنها بالكامل. على الرغم من أني تقدمت بطلب من أجل ذلك، لكن لم تتم الموافقة بعد.

- هذا مفهوم، قال إيفان ورطّب شفتيه الجافتين.

- أجلسونا في طائرة، كان عددنا سبعة أشخاص فقط. حتى الآن أنا شخصياً لا أعرف على أي أساس تم انتقاؤنا. لم أسأل، وهذا غير محبب عندنا. بعد ذلك، أعصبوا لنا عيوننا.

- أوي، يا بنات، كم هذا مرعب، قالت آنيا، والتصقت تماماً بـ سفيتا.

- نعم بالفعل، تمتمت الثانية وهي مذهولة.

- حلقنا لمدة طويلة. في موسكو نقلونا إلى طائرة أخرى، وزعوا علينا جميعاً بنادق آلية مع أربعة مخازن من الذخيرة.

- هل كانت الطلقات في المخازن؟ سأل أندري،

- كانت في جيوب خاصة، أجاب فاليرا ورفَّت عينه من جديد، جيوب - عندنا هكذا تعودنا تسميتها! كما أروي لكم: خرج إلينا جنرال قد شاب شعره قبل أوانه وقال: «رفاق، حتى الآن لم يفت الأمر بعد لمن يريد العودة. أنا لا أجبر أي أحد، ولا أريد أن يشترك أحد بغير إرادته، من الممكن أن تحصل خسائر، جاهزون»؟

واحد من المجموعة جبّنَ في المكان وطلب العودة.

في هذه اللحظة أخذ فاليرا فاصلاً ومرر نظره على المحيطين كافة. كان صمت الموت يسود المكان حوله.

أما أنا فابتسمت وأجبت: وماذا هناك أيها الرفيق الجنرال، هذه ليست المرة الأولى، فقط الذخيرة قليلة، نحتاج إلى كمية أكبر. أم كما يبدو سنقبع في الدفاع لفترة طويلة! ابتسم الجنرال

بدوره وقال: نسر، أنت نسر يا أخي، بعد ذلك استدار باتجاه العقيد، وقال له: أعطِ هذا، وأشار بإصبعه إليّ - قنبلتين من الاحتياطي الخاص بي.

مرة ثانية، حلقنا لفترة طويلة، ربما لخمس ساعات، من ثم هبطت الطائرة، وكانت هناك بانتظارنا حوامة في المطار العسكري نفسه. كانت المراوح تدور، ركضنا عدواً من الطائرة إلى الحوامة التي أقلعت مباشرة، وكانت تبدو تحتنا الكتل الجبلية، ثم هبطت في مكان سهلي. صافح الجنرال كل واحد منا وشجعنا، وقال لنا: اصمدوا يا أحبابي، أما هو فلم يستطع إيقاف دموعه.

انبطحنا جميعاً متخذين وضعية الدفاع ننتظر من هم ليسوا بأصدقاء. كنت أنظر عبر المنظار وأحاول معرفة كنه المكان أو البلد الذي نحن فيه، لكن دونما فائدة.

- من الممكن في أفريقيا؟ قالت آنيا واستمرت بالالتصاق بـ سفيتا.

- لا، لا وشرب فاليرا رشفة من مطرته الفردية. حسب الواقع كانت العملية في مكان ما في البلقان. لم يكن هناك أي شخص

أسمر اللون، وكذلك المكان لا يشبه دولة إسلامية. بقينا مستلقين لمدة سبع ساعات متواصلة. قريباً منا وقعت معركة عنيفة جداً، يا للهول، كيف كان الرصاص يصفر في الأجواء. الحمد لله، لم يتطلب الأمر في تلك المرة أن نشترك في المعركة.

من وقت إلى آخر تصنّع المتحدث فواصل في السرد واستثمرها في مراقبة الجمهور المأخوذ بالقصة إلى درجة أنه يستمع إليه حابساً أنفاسه.

- مرة ثانية طار إلينا الجنرال على متن الحوامة. كان يضغط على أيدي الجميع أثناء المصافحة، ويقول: لقد ساعدتمونا يا رفاق وستُمنَحون ميداليات، أما عندما اقترب مني فأشار إلى مساعديه وقال: أما هو فسيُمنَح وساماً، شكراً، شكراً لك أيها الجندي. على أمثالك من الشبان تستند وتعتمد أُمنا روسيا.

- ثم ماذا أعطوك؟ سأل إيفان بلهفة.

- ماذا أعطوني؟ ما قصدك؟ لم يفهم فاليرا.

- أقصد الوسام، أي وسام أعطوك؟

- بالله عليك أنت! وهل الحديث عن الأوسمة؟ وشرب فاليرا مرة أخرى رشفة وأضاف: وهل الموضوع موضوع أوسمة وميداليات عندما يتطلب الأمر منك مساعدة الأصدقاء؟ لدي من تلك الأوسمة ما يكفي ويزيد، أما وسام الشجاعة فقد حصلت عليه من كل الدرجات الأولى والثانية والثالثة!

- أما أندري فقد حارب أيضاً، في أفغانستان، قالت لينا ونفضت يديها من الرمل.

- أصحيح هذا؟ اشرأبت الفتاتان متلهفتين.

- أوه، إذاً نحن رفاق سلاح! قال فاليرا، وقوس حاجبيه إلى الأعلى، احكِ لنا حكايتك!

- نعم، احكِ لنا، قصّ علينا ما عندك، طلب إليه إيفان.

دخّن أندري، شرد لثانية واحدة وتذكر: سماء أفغانستان الزرقاء، الرعب بأمواجه المتتابعة، صرير الرمل تحت الأسنان، أرتال وأرتال وأرتال - كابول، قندهار، غازني، شيندانت، قندوز، قيظ الظهيرة والرياح الباردة التي تنفذ إلى المخ ليلاً، مطرة الماء التي حافظوا

عليها كقرة العين، البندقية التي لم تفارقهم حتى ليلاً، كمائن الإرهابيين، تسلق الجبال، المطار العسكري في طشقند.

نسيم بحري لطيف، يلفح الوجه بنعومة محببة أيقظه من سباته.

لا شيء، لا رغبة في سرد شيء ما، أنا خدمت هناك فقط الخدمة الإلزامية، ولم تحدث معي قصص ممتعة كهذه.

- مفهوم، وفي لحظة فقد الجميع اهتمامهم به، ومن جديد حولوا أنظارهم إلى فاليرا. من فضلك فاليرا، احكِ لنا شيئاً ما آخر مما حدث معك!

- أوكي، وشرب فاليرا جرعة أخرى من مطرته، سأقص عليكم كيف نفّذت إحدى المهام الحكومية المهمة. أنا لست كبعض الآخرين الذين...، سأقص عليكم دون أن أشرب أو أسكر، أنا حاربتُ...

... وشَرِبْتَ بحراً من الفودكا، أكمل أندري العبارة عنه.

* * *

فهرس

الصفحة

مطاردةُ الشبح (قصة) ٥

خاتم بفصّ من عقيق أو حوار مع شخص غريب ٦٠

شامة ٧٨

«كلونيدين»: تعليمات الاستخدام ٩٤

رحلة الطهي ١١٧

مبدؤنا ١٢٨

رحلة عادية ١٤٣

سيريوغا ١٦٤

صخرة ١٧٢

وسام ثقيل ١٨٣

المُقْنِعْ ١٩٤

أربعة كيلوغرامات ٢١٥

أنا حاربت وشربت بحراً من الفودكا ٢٢٨

فهرس ٢٣٨

ألكساندر أناتوليفيتش بونوماريوف

(١٩٦٩/٤/٢٢م)

- كاتب ومؤلف مسرحي روسي.
- حاصل على شهادة جامعية من كلية الآداب في جامعة ليبيتسك الحكومية، وشهادة عليا من المعهد الجمهوري لوزارة الداخلية الروسية باختصاص «علم نفس تطبيقي».
- خدم في أجهزة وزارة الداخلية الروسية، حتى رتبة مقدم شرطة متقاعد.
- عضو في رابطة المحاربين القدماء الروس المشاركين في العمليات القتالية في شمال القوقاز.
- حاصل على جوائز عدة في مسابقات أدبية محلية وعالمية.
- عضو في مؤسسات ثقافية متعددة: نقابة الكُتّاب الروس، الاتحاد الدولي لكُتّاب أوكرانيا، مجلس أدباء أوكرانيا ، أكاديمية القرم للآداب.

- **من أعماله المؤلفة:**

- من أجلنا، من أجلكم، من أجل شمال القوقاز، عام ٢٠٠٨م.
- أقحوانات لـ إيّا، عام ٢٠١٢م.
- عصر الدلو، عام ٢٠١٥م.
- خرافات النساء وإيحاءات الرجال، ٢٠١٥م.

د. عبد الحميد ديوب

- مترجم سوري.
- حاصل على إجازة في الهندسة الإلكترونية من روسيا عام ١٩٩٤م.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الإلكترونية من أكاديميات روسيا عام ٢٠١١م.
- ترجم كتباً علمية اختصاصية.

٢٠٢٤م

يضم هذا الكتاب قصة (مطاردة الشبح) إضافة إلى اثنتي عشرة قصة قصيرة، يجمعها قاسم مشترك واحد هو حياة البشر في ظروف الصراعات المسلحة. سيستمتع القراء كثيراً بتعرُّف انطباعات وأحاسيس الكاتب، الذي شارك شخصياً في المعركة، ويعرف هذه القضايا من خلال الواقع الحياتي الحقيقي المعيشي، وليس عبر السمع من الآخرين.

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٤ م